

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة ابن خلدون - تيارت -

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم العلوم الإنسانية

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في تاريخ المغرب العربي الحديث

والمعاصر موسومة بـ:

الصّراع بين المغرب الأقصى والبرتغال

خلال القرن (10 هـ / 16م)

إشراف الدكتور:

– كمال بن صحراوي

إعداد الطالبتين:

– طاشور مسعودة

– عامر منصور فاطمة

أعضاء لجنة المناقشة

رئيسا

مشرفا

مناقشا

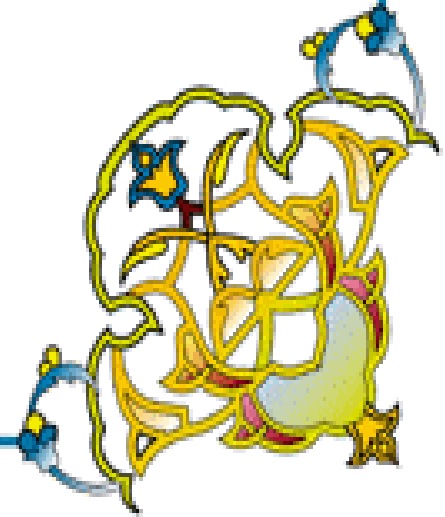
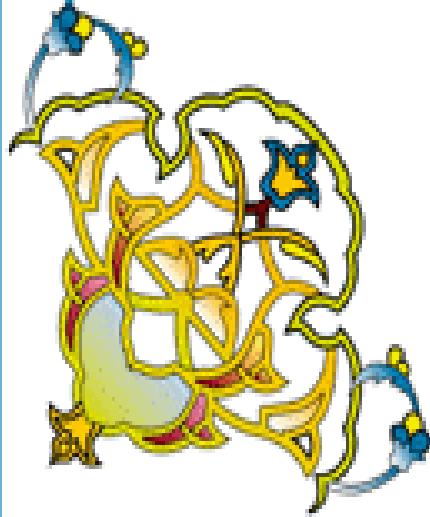
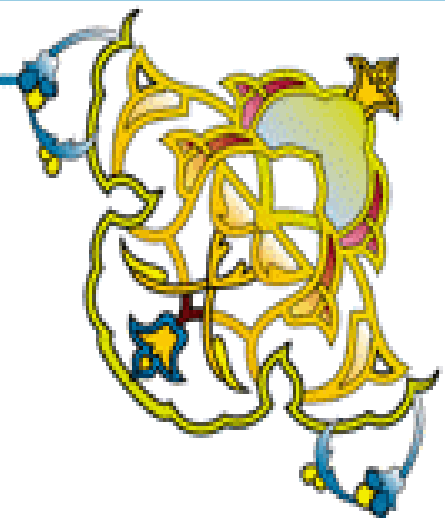
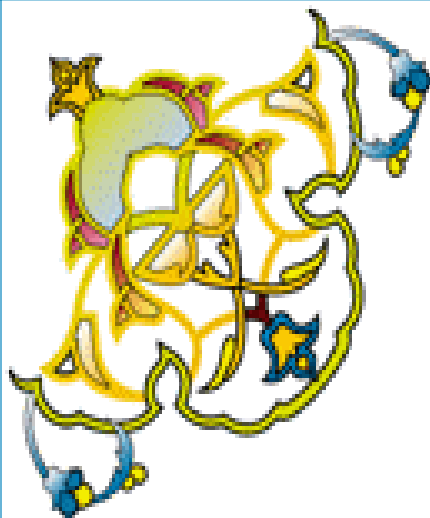
الدكتور: بكارى عبد القادر

الدكتور: بن صحراوي كمال

الدكتور: موساوي مجدوب

السنة الجامعية: 1437-1438 هـ / 2016-2017م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



# شكر وتقدير

نشكر الله العليّ القدير الذي وفقنا في إنجاز هذا العمل، كما نتقدم بالشكر الجزيل والتقدير

العظيم إلى أستاذنا الفاضل المشرف الدكتور «بن صحراوي كمال» الذي أشرف علينا، والذي

كان ساندنا فقد دعمنا من أول خطوة في إعداد هذه المذكرة إلى نهايتها، فقد قدم لنا كل ما

نحتاجه من نصائح ومعلومات قيمة، وكذا تشجيعه المستمر لنا، فلم يخل علينا، فزودنا بحملة

من المصادر والمراجع خلال هذا العمل، وشملنا بسعة صدره وصبره وحرصه على عملنا فكان

النور الذي أثار دربنا، كما نشكر وبعمق كبير الأستاذ: (جني سمير) الذي ساندنا ودعمنا

معنويا في إنجاز هذه المذكرة.

والصلاة والسلام على نبينا الكريم والله نسأل التوفيق

الطالبان: عامر منصور فاطمة.

طاشور مسعودة.



# الإهداء

أهدي ثمرة جهدي هذا للذين قال فيهم الرحمان.

(وخفض لها جناح الذل من الرحمة وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا)

إلى التي رسمت أول حرف من حروف الحب على لوحة قلبي وسقتني ماء السعادة والأمان والحنان.

إلى التي وضعت الجنة تحت قدميها.

إلى التي أعطتني الحنان والحب في سماء مليئة سقطت نجمة ولا زالت أضيء بحسن رعايتك أهواك

يا ينبوع الصفاء.

إلى أمي الحبيبة والعزيزة والغالية على قلبي

"أمي"

إلى من رواني من الحلو حنان

إلى من ورثني الكلام الحلو والصدق والإيمان

إلى حبيبي حبيبي ونور عيني (أبي الغالي)

"أبي".

إلى صديقتي الحنونة "طاشور مسعودة"

عامر منصور فاطمة







# إهداء

بأصدق المشاعر وبأشد الكلمات الطيبة التابعة من قلب وفي أقدم شكري وامتناني  
لمن كانوا سببا في استمرار واستكمال هذا العمل المتواضع من وقفومعي بأشد الظروف  
وحفزوني على المثابرة والاستمرار وعدم اليأس أقدم لكم أجمل عبارات الشكر والامتنان  
من قلب فاض بالاحترام والتقدير:

إلى حبيبي العصفورة "أمال، أكرام"

إلى أخي الغالي الحنون "لخضر"

إلى من يجري حبهم في عروقي وبلغ بذكرهم فؤادي أخوتي وزوجاتهم

"محمد" (بختة)، "أحمد" (سعدية)

إلى إخوتي الكرميات وأزواجهن

"عمارية، فضيلة، زينب، دليلة".

إلى توأم روحي ونصفي الآخر حبيبي "حليمة"

إلى "صارة، أشواق، صارة (حفصة)، إيمان، نريمان، بشرى، أسامة، محي الدين، مرسلي".

وإلى الكتكوتة "لينة (أمينة)، شيماء، أيوب".

وإلى المولود الجديد

كما أهدي هذا العمل إلى صديقتي "مريم، عائشة، سليمة، خيرة"

إلى الأساتذة "يوسف، سامر، محمد"

عامر منصور فاطمة





# إهداء

إلى روح أبي الزكية والطاهرة الذي علمني النجاح والصبر

إلى من أفقده في مواجهة الصعاب

ولم تمهله الدنيا لأرتوي من حنانه

أبي - رحمه الله -

"أبي"

إلى من تتسابق الكلمات لتخرج معبرة عن مكون ذاتها

إلى من علمتني وعانت الصعاب لأصل إلى ما أنا عليه

عندما تكسوني الهموم أسبح في بحر حنانها ليخفف من آلمي أُمي الغالية أطال الله في عمرها

"أُمي" "أُمي".

إلى إخوتي وأسرتي جميعا

إلى أستاذي المحترم "كمال بن صحراوي" وإلى جميع الأساتذة والأصدقاء

وإلى كل من أضاء بعلمه عقل غيره وشكرا.

طاشور مسعودة



| الاختصار | الكلمة        |
|----------|---------------|
| تق       | تحقيق         |
| تص       | تصحيح         |
| تع       | تعليق         |
| تر       | ترجمة         |
| درا      | دراسة         |
| تم       | تقديم         |
| ع        | عدد           |
| مرا      | مراجعة        |
| ط        | طبعة          |
| ج        | جزء           |
| مج       | مجلد          |
| ص        | صفحة          |
| ص ص      | صفحات متتالية |
| س        | سنة           |
| هـ       | هجري          |
| م        | ميلادي        |

# مقدمة

## مقدمة:

كان المغرب الأقصى يحظى بمكانة هامة بين دول المغرب الأقصى وهذا يعود إلى موقعه الجغرافي الهام، ذو خصائص طبيعية مميزة تميزه عن باقي الأقاليم الجغرافية الأخرى في بلاد المغرب، لكن هذا كان دافعا للدول الأوربية نحوه حيث تعرض المغرب الأقصى للعديد من الغزوات الأوربية، وخاصة الغزو البرتغالي الذي كانت له نتائج سلبية على بلاد المغرب بصفة عامة والمغرب الأقصى بصفة خاصة، وهذا كان مطلع القارن السادس عشر ميلادي.

لقد شهد المغرب الأقصى خلال هذا القرن (10هـ/16م) أوضاعا صعبة في جميع نواحي الحياة، فمثلا على المستوى السياسي كان يعاني المغرب من التفكك والتجزئة والضعف وانتشار الفتن وخاصة خلال العهد الوطاسي، وهذا ما اعتبر من أسباب فشل الوطاسيين وعدم قدرتهم على توحيد البلاد من جديد خاصة مع ازدياد قوة الأشراف السعديين الذين صاروا يحضون بمكانة كبيرة وخاصة عند شيوخ الزوايا.

وبالرغم من وجود صراع بين المملكة المغربية ومملكة البرتغال إلا أن هناك علاقات سادت بينهما، وقد كانت تختلف من فترة إلى أخرى ومن عهد إلى آخر، حيث اتسمت بطابعين سلمي وحربي سواء في عهد الوطاسيين أو في عهد السعديين.

إن دراسة موضوع العلاقات المغربية البرتغالية خلال القرن السادس عشر (16) جعلنا ننطلق من بعض الإشكاليات لرسم خطة عامة للموضوع ومعالجته:

- كيف كانت أوضاع المغرب الأقصى خلال القرن السادس عشر في العهد الوطاسي والعهد السعدي؟.
- وما هي الأسباب التي كان لها دخل في سقوط الحكم الوطاسي وظهور الحكم السعدي؟.
- بما اتسمت طبيعة العلاقات المغربية البرتغالية في العهدين الوطاسي والسعدي؟.
- كيف إستطاع المغاربة القضاء على الغزو البرتغالي وإسترجاع مكانة بلاد المغرب؟ وما مكانة معركة وادي المخازن في هذا الإنقلاب النوعي في العلاقات المغربية البرتغالية؟.

ومن الأسباب التي دفعتنا إلى هذا الموضوع هي قلة الدراسات السابقة إضافة إلى أهميته المتمثلة في الكشف عن العلاقات السائدة بين هاتين القوتين (الدولتين)، حيث كانت هذه العلاقات تتسم تارة بالسلم وهذا عن طريق المعاهدات والإتفاقيات التي كان يبرمها المغاربة مع ملوك الدولة البرتغالية من أجل تحقيق الأهداف لكلا الطرفين، كما تعاقبت عن تلك الفترات حروب وصراعات دامية بينهما. أما فيما يخص المنهج المتبع في هذه الدراسة فقد كان المنهج التاريخي حيث استخدمنا المنهج التاريخي في دراسة أوضاع المغرب الأقصى خلال القرن السادس عشر ميلادي.

لمعالجة موضوع بحثنا إعتدنا على جملة من المصادر نذكر منها:

كتاب «الاستقصا» لأبي العباس أحمد بن خالد الناصري الذي يعتبر من أهم المصادر التاريخية في تاريخ المغرب الأقصى بأجزائه وخاصة الجزئين الرابع والخامس (4 و5) حيث أفادنا في معرفة أسباب سقوط الحكم الوطاسي ومعرفة نسبهم (ج4)، بينما الجزء الخامس في معرفة نسب الأشراف السعديين، ومعركة وادي المخازن.

كتاب «مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا» لصاحبه أبي فارس عبد العزيز الفشتالي، والذي يعتبر كذلك كمصدر مهم خلال العهد السعدي، حيث أفادنا في تناول العلاقات السعدية البرتغالية. كتاب «تاريخ الدولة السعدية التكمذارية» للمؤلف المجهول الذي يعتبر أهم مصادر بدراسة معركة وادي المخازن والنتائج المترتبة عنها بكل صفة موضوعية.

كتاب «وصف إفريقيا» لحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي الذي يعتبر كذلك من المصادر المهمة في تاريخ المغرب الأقصى حيث أفادنا في التعرف على بعض البلدان التاريخية والجغرافية، كما أفادنا كذلك في قيام الدولة السعدية.

كتاب «معجم البلدان» للإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغداوي، الذي أفادنا هو الآخر في التعرف بالمدن وغيرها من المصادر التي ساعدتنا في موضوعنا هذا.

أما فيما يخص المراجع المعتمدة بصفة كبيرة:

كتاب «المغرب عبر التاريخ» لإبراهيم حركات حيث يعتبر هذا الكتاب كمرجع أساسي ومهم في تاريخ المغرب الأقصى، حيث إعتمدنا عليه بشكل كبير في التعرف على أوضاع المغرب الأقصى خلال القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي (10هـ/16م) وكذلك في أسباب سقوط الحكم الوطاسي.

كتاب «موسوعة المغرب العربي» لمؤلفها عبد الفتاح المقلد الغنيمي حيث أفادتنا تلك الموسوعة كذلك في الفصل الأول (أوضاع المغرب الأقصى) وكذلك في دراسة العلاقات السعدية البرتغالية.

كتاب «العمائر الدينية والجنائزية بالمغرب في عصر الأشراف السعديين» لمؤلفه محمد السيد محمد أبو رحاب وقد أفادنا هذا الكتاب بشكل كبير في الفصلين الأول والثاني.

كتاب «اليهود في بلاد المغرب الأقصى في عهد المرينيين الوطاسيين» لمؤلفه عطا علي محمد شحاتة ربه أفادنا في الأسباب التي أدت إلى سقوط الحكم الوطاسي.

كتاب «الوسيط في تاريخ الدولي للمغرب» (ج2) لعبد الهادي التازي حيث أفادنا هذا المرجع وبشكل واسع في التعرف على طبيعة العلاقات بين الدولة الوطاسية والبرتغاليين.

كتاب «الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين» (ج2) لمؤلفه محمد حجي الذي أفادنا في دراسة الأوضاع الثقافية للمغرب الأقصى خلال العهد السعدي.

كتاب «مجمل تاريخ المغرب» لعبد الله العروي الذي أفادنا في التعرف على نسب وأصل الوطاسيين كما أفادنا كذلك بصورة كبيرة في الفصل الثاني في أسباب سقوط الحكم الوطاسي، وغيرها من المراجع التي إعتمدنا عليها في بحثنا والتي أفادتنا ولو بالقليل، لكن هناك بعض الثغرات والفجوات لازالت موجودة، سواء في طبيعة الحروب وحتى طبيعة العلاقات خاصة الخارجية.

وفيما يخص الخطة المعتمدة كانت على الشكل التالي:

لقد قسمنا بحثنا هذا إلى مقدمة، وثلاثة فصول وخاتمة كانت عبارة عن حوصلة لما تقدم في الموضوع حيث كان عنوان الفصل الأول، الذي قسمناه إلى ثلاثة مباحث بـ: أوضاع المغرب الأقصى خلال القرن السادس عشر ميلادي، بينما المبحث الأول فقد عنون بالوضع السياسي، والبحث الثاني فكان بعنوان الوضع الاقتصادي، بينما المبحث الثالث، فعنون بالوضع الاجتماعي الثقافي.

أما الفصل الثاني والذي قسم بدوره إلى مبحثين فكان عنوانه نهاية الحكم الوطاسي وبداية الحكم السعدي بالمغرب الأقصى، حيث عنون مبحثه الأول بـ: بأسباب ضعف الحكم الوطاسي، المبحث الثاني تحت عنوان بداية الحكم السعدي، أما عن الفصل الثالث والأخير والذي قسم إلى ثلاثة مباحث حيث كان عنوانه العلاقات المغربية البرتغالية حيث تطرقنا في المبحث الأول العلاقات الوطاسية البرتغالية والمبحث الثاني تناولنا فيه العلاقات السعدية البرتغالية، بينما المبحث الثالث فقد تطرقنا فيه إلى معركة وادي المخازن التي تعتبر كحد فاصل في تغيير نوعية هذه العلاقات.

وفي الأخير ختمنا بحثنا هذا بخاتمة كانت عبارة عن إستنتاجات إشتملت موضوعنا، أما عن الصعوبات العقبات التي إعترضتنا خلال بحثنا في هذا الموضوع هي:

وخلال مسيرة البحث إعترضتنا مجموعة من الصعوبات ومنها عدم قدرتنا على الحصول على بعض المؤلفات المهمة ككتاب «السياسة والمجتمع في العهد السعدي» لإبراهيم حركات، إضافة إلى تشابه المادة العلمية في كثير من المراجع المعتمدة غير أن ذلك لم يحد من عزمنا حيث عملنا على إتمام البحث رغم قناعتنا بوجود جوانب نقص كثيرة فيه وهو ما سنحاول تجاوزه من خلال توجيهات لجنة المناقشة.



# الفصل الأول

## أوضاع المغرب الأقصى خلال القرن السادس عشر ميلادي

المبحث الأول: الوضع السياسي.

المبحث الثاني: الوضع الاقتصادي.

المبحث الثالث: الوضع الاجتماعي والثقافي.

### تقديم:

شهد المغرب الأقصى خلال مطلع القرن العاشر هجري، السادس عشر ميلادي (10هـ/16م) العديد من المشاكل والكوارث الطبيعية والبشرية لفترة طويلة من تاريخه، كانتشار العديد من الأمراض كمرض الطاعون وأمراض المعدّة وغيرها من الأمراض، حيث نتج عن هذه الأمراض تدهور في العلاقات والتخلف في السياسات كنشوب الثورات والفتن والتمردات، وقد كان لها تأثير سلبي على بنية البلاد المغربية.

إضافة إلى تلك الأمراض قد عرف المغرب جفاف وأيام قحط حادة، أثر تأثيرا كبيرا على الحياة من جميع نواحيها، وخاصة من الناحية الاجتماعية والإقتصادية، كما عاش المغرب خلال هذا القرن العديد من المجاعات وخاصة مجاعة 1520م، التي تعتبر أكبر مجاعة عرفها المغرب والتي كانت لها نتائج وخيمة على البلاد فإضطّر الناس إلى بيع أبنائهم وإخوانهم وحتى أنفسهم من أجل ضمان لقمت العيش.

## المبحث الأول: الوضع السياسي

امتازت نهاية القرن الخامس عشر ميلادي وبداية القرن السادس عشر ميلادي بمجموعة من الأحداث المهمة في تاريخ بلاد المغرب وخاصة المغرب الأقصى، حيث يمكن لهذه الأحداث أن تؤثر في نهاية الدولة الوطاسية التي أصبحت عاجزة عن حماية أراضيها والدفاع عنها لتأتي بعدها دولة الأشراف السعديين لهذا تميزت أوضاع المغرب الأقصى خلال القرن السادس عشر بأوضاع مزرية ومتفككة في جميع المجالات السياسية والاقتصادية الاجتماعية وحتى الوضع الثقافي على المستويين الداخلي والخارجي، حيث أن على المستوى الخارجي تمكن البرتغاليون والإسبان من السيطرة على الشواطئ المغربية إذ قاموا باستغلالها بوسائل قمعية وحرموا سكان هذا البلد من خيراته وموارده<sup>1</sup>.

أما على المستوى الداخلي فإنه قد شهدت هذه الفترة ضعف الدولة الوطاسية بسبب الصراعات والنزاعات والثورات المتكررة بين الأبناء والآباء والأعمام حول السلطة والتي كان لها تأثيرا كبيرا على الخارطة السياسية للبلدين والذي استمر طيلة القرن السادس عشر ميلادي، حيث دفع إلى تكوين نمط معين من الأوضاع السياسية وظهرت قيادة جديدة ساهمت بدرجة كبيرة في تغيير الأوضاع ومست جميع المجالات، السياسية والاجتماعية بين القوى السياسية المختلفة في العهد الوطاسي الذي دام حكمه فترة طويلة من سنة 1470 حتى 1550 م<sup>2</sup>.

لقد عجزت الدولة الوطاسية على توحيد المغرب الأقصى سياسيا وعدم توفير الأمن الداخلي له وذلك لضعف السلطة المركزية بفاس عن الحفاظ على الأمن والدفاع عن البلاد فانتشرت الفوضى والفتن، وأمام هذه الأوضاع تعرض المغرب الأقصى لموجات الغزو الأجنبي لمختلف مدنه خاصة الساحلية من طرف الإسبان والبرتغال حيث تمكن الإسبان من احتلال بعض الموانئ منها :

1- احتلال مليلية 1496.

2- مدينة الغساسة سنة 1504.

3- حجر باديس سنة 1508.

<sup>1</sup> عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ج2، بيروت: دار الغرب الاسلامي، ط1، 2005، ص 275.

<sup>2</sup> إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج2، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، ط1، 2000، ص 178.

أما البرتغاليون فقد تمكنوا من احتلال مدينة سبتة سنة 1415م<sup>1</sup>، ثم القصر الصغير 1452م.

وفي عام 1471م مدينة أصيلا<sup>2</sup> وطنجة لكن دون مقاومة<sup>3</sup>، وبعدها موقع مازكان سنة 1502م وأغادير التي كان إسمها في البرتغالية (Coba de Guer) وذلك سنة 1505، ومدينة آسفي سنة 1508م<sup>4</sup>، إضافة إلى تخريب مدينة أنفا التي سميت بعد ذلك بالدار البيضاء، كما إستولوا على آزموور سنة 1513م وفي عام 1514م على ثغر المصورة وهي مدينة المحمدية<sup>5</sup>.

من الحركات القبلية التي عرفها المغرب الأقصى خلال القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي نذكر المجالس المحلية ومثال ذلك في وسط المغرب وغربه إمارة بن حدوو أخيه أبي فارس في الجبل الأحمر وشرق وشمال المغريرين إمارة شفشاون ودبدو<sup>6</sup>.

في عهد الدولة الوطاسية بدأت تظهر حركات إلى جانب القوى الدينية مثل :

الطرق الصوفية التي تختلف عن التنظيمات الدينية السياسية والتي أنشأها عبد الله بن ياسين ومحمد ابن تومرت إذ تمثلت في حركة المرابطين والموحدين، وقد كان لظهور هذه الطرق الصوفية وانتشارها عوامل عديدة كغياب

<sup>1</sup> - حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضاراته من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، ج 2، بيروت - لبنان: العصر الحديث للنشر والتوزيع، ط1، 1992، ص 92.

<sup>2</sup> - أصيلا: هي بلد يقع بقرب مدينة طنجة ويقال فيه أزيله وهي مدينة كبيرة قديمة عامرة بالسكان وأراضيها خصبة، لها مرسى مقصود وهي أول مدن العدو من جانب الغرب. أسست أصيلا في نفس الوقت الذي أسست فيه البصرة. ينظر: محمد ابن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، بيروت: مكتبة لبنان، ساحة رياض الصلح، ط2، 1984 ص 42-109.

<sup>3</sup> - محمود السيد، تاريخ دول المغرب العربي، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 2006، ص 239.

<sup>4</sup> - أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج4، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1900، ص141.

<sup>5</sup> - عمار بن خروف، العلاقات بين الجزائر والمغرب ( 923هـ - 1069م / 1517هـ - 1659م)، رسالة لنيل الماجستير في التاريخ، جامعة دمشق، ص 69.

<sup>6</sup> - دبدو: هي قرية صغيرة توجد وسط سهول تافراطا حيث يرجع تاريخ بنائها إلى العصر المريني، وأعيد تحصينها وبنائها خلال العصر الوطاسي ولقصة دبدو الحصن القديم الذي يشرف على المدينة، بما عدد كبير من العيون وهي المنطقة التي تسير شؤونها بنفسها كل سنة، وتعتبر البلدة الوحيدة التي يفوق فيها عدد اليهود عدد المسلمين، إذ كانت هذه المنطقة تعرف تجارة كبيرة، ينظر شارل دوفوكو، التعرف على المغرب (1883-1884)، ج1، المختار بلعربي، الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط 1، 1999، ص 337.

السلطة التي انتشرت وكثرت وأصبحت بذلك تساير العصر وبرزت كقوة صاعدة خاصة مع مطلع القرن السادس عشر ميلادي الموافق للعاشر هجري<sup>1</sup>.

ومن الطرق الصوفية التي ظهرت خلال هذا العصر نذكر :

الطريقة الجازولية: التي أسسها الشيخ عبد الله محمد الجازولي بالمغرب الأقصى والتي انتشرت في كل ربوع المغرب ولعبت دورا كبيرا في كل جوانب الحياة كما وفرت الأمن والسلم والأمان خاصة في عهد الشيخ عبد الله مبارك الأقاوي، هذه الطريقة لعبت دورا أساسية في النزاعات القبلية، والاقتصادية والاجتماعية حيث عملت على لم شمل الناس وحل مشاكلهم، كما لعبت المثلث الثلاثي في المجال الحربي وخاصة الميدان السياسي ونظرا لعجز الوطاسيين استعملت هذه الطريقة وعملت ولبت نداء الجهاد<sup>2</sup>.

أما الطريقة الثانية وهي الطريقة القادرية نسبة إلى قطب الصوفية المشرقي عبد القادر الجيلالي الذي توفي في بغداد عام 1066م . والطريقة الثالثة وهي الشاذلية التي أسسها قطب الصوفية المغربي عبد السلام بن مشيش وسميت بالشاذلية نسبة إلى شخصية أبي الحسن الشاذلي أول مرید لعبد السلام بن مشيش والتي كان زعيمها في ذلك الوقت محمد الجازولي الذي كان يعرف في كل أنحاء المغرب وكان مركز قوتها<sup>3</sup> وأساسها الجنوب موطن الجازولي حيث مدينة فاس ملتقى لدعم الأشراف الأدارسة التي انضم إليها عدد كبير من الأشراف وقد وقفت هذه الطريقة ضد الوطاسيين في مدينة فاس هذا من جهة ومن جهة أخرى كانت النواة الأولى لقيام دولة الأشراف السعديين<sup>4</sup>.

ومن أشهر الأئمة الذين عرفتهم بلاد سوس خلال هذه الفترة نذكر:

1) الشيخ العالم حسن بن عثمان شيخ جازولة بقرية اسجاور.

<sup>1</sup> - حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 83.

<sup>2</sup> - عبد الفتاح مقلد الغنيمي، موسوعة المغرب العربي، ج6، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط1، 1994، ص 29.

<sup>3</sup> - محمد الجازولي هو أبو عبد الله محمد بن سليمان الجازولي الصنهاجي الذي توفي في بيناني 870هـ و1465م وهو من رجال التصوف بدأ دراسته في مدرسة الصفارين بفاس وبعدها مالت نفسه إلى الزهد ثم إعتزل في الرباط أزمو، أطلق عليه الناس لكثرة زهده الغزر وهو لفظ بربري معناه العالم حج إلى بيت الله الحرام، إستقر بفاس والذي جمع تعاليم طريقته في كتاب بإسم دلائل الخيرات. ينظر: حسين مؤنس، المرجع السابق، ص 83.

<sup>4</sup> - محمد خير فارس، تاريخ المغرب الحديث، ج1، دمشق: مطبعة المحبة، 2003، ص ص 24 - 25.

2) الإمام محمد بن مبارك بقرية أنفا، الذي أشتهر على غيره بالعلم والتقوى وأمر الناس ودعوتهم إلى الجهاد هذا ما جعل الناس يلتفون حوله، كما أنه كان يتصف بصفات أخرى كالا احترام والقداسة، بالإضافة إلى نفوذه القوي لدى جميع القبائل<sup>1</sup>.

لقد كانت أكثر طريقة منتشرة ببلاد المغرب طريقة الشيخ الجازولي حيث تزايد مريدوه مع الزمن وأصبحت طريقته من أوسع الطرق الصوفية ببلاد المغرب اضافة إلى ذلك انتشرت الزوايا والرباطات في كل مكان إذ كان للجازولين أثر في إذكاء الحماس الديني الذي استفادت منه الدولة الوطاسية في صراعها مع العدو الأجنبي البرتغالي وقد إنبثقت عن هذه الطريقة طرق أخرى مثل :

- الطريقة العيساوية في المغرب والجزائر وتونس.
- الطريقة اليوسفية في الجزائر.
- الطريقة الشيعية في المغربين الأقصى والأوسط.
- الطريقة الطيبية في المغربين الأقصى والأوسط.
- الطريقة الناصرية في المغرب الأقصى.

أما الطريقة الأخيرة فتمثلت في الطريقة الشرقاوية والتي كانت متمركزة في المغرب<sup>2</sup>.

لقد كان لهذه الطرق الصوفية أدوارا هامة في الحياة السياسية في المغرب الأقصى التي حلت محل العصبية القبلية وهذا بعد مقتل الجازولي والذي كان له أثر كبير في قيام دولة الأشراف السعديين بعد نهاية بني وطاس في المغرب وقد كانت هذه الطرق الصوفية منشرة بين الناس الأمر الذي جعلهم يقومون بإنشاء الزوايا في كل ربوع الوطن المغربي حيث كان يجتمع الناس فيها لقراءة الأحزاب<sup>3</sup>، وقد كانت هذه الزوايا والطرق تحل محل الدولة وذلك في

<sup>1</sup> - أنفا: الدار البيضاء (Casablanca) العاصمة التجارية للمغرب الأقصى على ساحل المحيط الأطلسي تشتهر بالإنتاج الزراعي والصناعي، وقد وقع عليها إعتداء من الأساطيل البرتغالية، حيث دمرها تماما وذلك بسبب منافستها التجارية لثغر قابس، ولكن أعيد بناؤها عام 1515م. ينظر: لسان الدين ابن الخطيب السلماني، تح: محمد كمال شيبانة، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2002، ص 156.

<sup>2</sup> - حسين مؤنس، المرجع نفسه، ص 84.

<sup>3</sup> - حسين مؤنس، المرجع نفسه، ص ص 89 - 90.

تحمل العبء كونها فتحت أبوابها للمسافرين الموردين وبالخصوص في البوادي والتي عملت على توزيع المواد الغذائية، وكما كانت تتوصل بالهبات والصدقات<sup>1</sup>.

لقد كان مؤسسو هذه الطرق عادة يحترمون الناس فمنهم من كان متصوف إذ تباينت واختلفت فكان منهما ما هو مرتفع إلى غاية السمو وطرق لم يكن يهتمها سوى التطور الروحي والاحتماء والتقرب إلى الله بالعبادة والعمل الصالح وتعويد النفس على تحمل المشاق ومنها طرق كانت تدعوا إلى الخرافة والشعوذة، وهذه الطرق سوف تؤثر بدورها على شؤون الدولة<sup>2</sup>.

لقد شهدت فترة حكم السلطان الشيخ محمد البرتغالي ( 910-932هـ / 1504-1525م) تراجعا وتدهورا في أوضاع المغرب الأقصى مما أدى إلى انقسام البلاد فانقلبت بذلك موازين القوى إلى صراع داخلي بين بني وطاس الثائرين عليها، لكن بعد وفاته صار الحكم لابنه السلطان أبي العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد بن الشيخ، لكنه لم يدم طويلا في السلطة حتى ثار عليه ابن أخيه أحمد بن أبي عبد الله بدعم من ابن الشريف مولاي إبراهيم الذي كان أمير الشرافة شفشاون والذي قام بتأييد السلطان محمد البرتغالي وذلك في عام 1526م ضد عمه ابن الحسون<sup>3</sup>.

قام مولاي إبراهيم الشريف بالهجوم على مدينة أصيلا وأخذها من يد البرتغاليين حتى إنه تجاوز حدود إمارة شفشاون وشغل منصب الوزير، كما وقع هذا الأخير معاهدة سنة 1358م بين سلطان فاس أحمد الوطاسي وبين الابن الثالث ملك البرتغال والتي احتوت في بنودها وبصورة عامة وواضحة في نوعية العلاقات البرتغالية الوطاسية ومدى تحكم هذه القوى في السلطة الوطاسية، وبتوقيع هذه الاتفاقية اتضحت أمور السلطة الوطاسية التي سوف تقضي عليها الدولة السعدية، حيث نصت هذه الأخيرة في بنودها على استمرار هذه المعاهدة لمدة إحدى عشر

<sup>1</sup> - العربي الصقلي، مذكرات من التراث المغربي، مرا وتج: عبد السلام حجي، ج3، 1985، ص 197.

<sup>2</sup> - أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد البرتغالي بن أبي عبد الله محمد الشيخ بن أبي زكريا بن زيان الوطاسي، بوع يوم خلع عمه أبي حسون آخر ذي الحجة وذلك سنة 932هـ وعندما توفي هذا الشيخ ترك الحكم لولده أبي العباس أحمد. ينظر: أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، المرجع السابق، ص 149.

<sup>3</sup> - عبد الفتاح مقلد الغنيمي، المرجع السابق، ص 37.

عاما تنتهي في عام 1549م إضافة إلى تحريم تجارة الأسلحة وعدم التدخل في الطرقات وأن تكون الهدنة بهدف كسب الود مع الشريف شفشاون ومع السلطان الفاسي الوطاسي<sup>1</sup>.

زواج أحمد الأعرج من ابنة الأمير محمد بن الناصر بوشنتوف من جهة ومن جهة أخرى نقل رفاة الشيخ الجازولي في عام 1524 ما نتج عنه صراع بينهما وفي حقيقة الأمر. أمّا مجيء السعديين برفاة الشيخ الجازولي إلى مراكش كانت البداية الحقيقية لعمرهم<sup>2</sup>. فالسلطان أحمد لم يستطع مواجهة تجدد الصراع بين القوتين السعديين والوطاسيين حيث إلتقا الجيشان في بلدة أنماي وذلك كان في عام (935هـ - 1529م) كما تجددت المعركة للمرة الثانية في وقعة أبي عقبة لكن دون جدوى<sup>3</sup>.

أمّا عن الحديث عن الوضع السياسي بالدولة العظمى فإن الأمر يختلف إختلافا كبيرا، فقد تمكن السعديون وذلك بفضل الدعوة إلى الجهاد والتي كانوا يتزعمونها وقد كان الهدف منها هو العمل على إسترجاع الثغور المحتلة وخاصة تلك التي كانت في يد الأجانب سواء تعلق هنا الأمر بالإسبان أو حتى القوة البرتغالية مستفدين بذلك من نسبهم الشريف في الحكم ببلاد المغرب الأقصى أي الأسرة الحاكمة التي تستند إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والتي وتُجمع من حولها الذين يسعون إلى نصرة البيت وذلك بقيادة الشيخ محمد القائم بأمر الله سنة (915هـ - 1510م)، ولما إزداد الخطر البرتغالي على إقليم سوس طلب محمد مبارك من الآغا في أقصى الجنوب السوسي تولى القيادة<sup>4</sup>.

لقد رفض هذا الأخير الاعتراف بالمعاهدة الموقعة من طرف أخيه أحمد الأعرج والتي كانت تحتل الحدث المهم والبارز في تاريخ السعديين كما تمكن من طرد الغزاة الأتراك وذلك بالتصدي لحملات الإسبان في العديد من

<sup>1</sup> - عبد الفتّاح الملد الغنيمي، المرجع نفسه، ص 38.

<sup>2</sup> - نفسه، ص 39.

<sup>3</sup> - محمد الصغير الأفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، باريس: دار بيرن، 1888، ص ص 19-42.

<sup>4</sup> - عبد الله بن محمد الشيخ محمد القائم بأمر الله السعدي (الغالب بالله) (994هـ - 1557-1574) ولد محمد الغالب بن محمد الشيخ المهدي بمدينة تارودانت عام 933هـ-1027م) تولى الحكم خلفا لوالده، إثنين وثلاثين عاما كان رجلا حازما، جامعا ومحافظا على إنتظام ملكه ثم صار معروفا عند الجميع الأمير السعدي الجديد على التخلص بالعرش. ينظر: عبد الفتّاح مقلد الغنيمي، المرجع نفسه، ص 130.



المّرات، كما قام بعدة حملات إلى أن قتل سنة 1557م تاركا من ورائه أبنائه وهم ثلاثة، الأول يسمى عبد الله الغالب، والثاني يعرف بعبد الملك، أمّا الثالث يدعى أحمد المنصور الذهبي صاحب الفتوحات الكبرى<sup>1</sup>.

تميز عهد أحمد المنصور الذهبي الذي يعتبر من أعظم خلفاء الدولة السعدية حيث شهدت البلاد أوج قوّتها في هذا العهد وعرفت استقرارا وقوة وتوسعا كما شهدت الحضارة مظاهر التقدم والاستقرار والعظمة والمجد ونهضة شملت الجانب العمراني، حيث اهتم بتوجيه وضبط السياسة الخارجية للدولة، كما اهتم بمشكلات عصره بأكملها، وقد كان مهتما كل الاهتمام بالعلم والعلماء ورجال الدين، إذ برزت في عهده النظم الإدارية والمتمثلة في مجلس الشرى، وعرفت البلاد مظاهر الحضارة في جميع المجالات سواء السياسية، الاقتصادية، الثقافية، وحتى الاجتماعية حيث أنشأت المعاهد والمستشفيات، والقناطر والحصون والقلاع، كما ازدهرت في عهده الفنون والعلوم الأمر الذي ساعد على نجاح مشاريعه التي استمرت على مدى السنين من مدة حكمه والتي دامت أكثر من واحد وعشرون عاما<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 296.

<sup>2</sup> - عبد الفتّاح مقلد الغنيمي، المرجع السابق، ص 200.

## المبحث الثاني: الوضع الاقتصادي

شهد المغرب الأقصى خلال القرن السادس عشر ميلادي العاشر هجري اضطرابا اقتصاديا وهذا نتيجة للفتن والأزمات التي كانت منتشرة بكثرة في الداخل والخارج بسبب الاحتلال الأجنبي لمختلف السواحل المغربية وما ترتب عنها من نتائج سلبية، فكان الجانب الاقتصادي المتضرر الأكبر حيث عرف النشاط الزراعي تراجعاً كبيراً وملحوظاً وخاصة في منتجاته فأصبح الفلاح عاجزاً على إصلاح ولو جزء من قطعة أرضه في ظلام حالك تسوده الفوضى والاضطراب وعدم الاستقرار ومما زاد الأوضاع سوءاً هو اعتماد الفلاح على وسائل تقليدية، حيث كان الإقتصاد في هذه الفترة شبه مغلق وكثر بذلك النهب والسلب رغم وجود بعض المراكز والتي ساهمت ولو بصورة في استمرار وإزدهار النشاط الإقتصادي المحلي، بالإضافة إلى تراجع في الحرف والمصانع وهذا ما وصفه لنا الحسن الوزان المعروف (بليون الإفريقي)<sup>1</sup>.

الأمر الذي ضاعف من سوء الحالة الداخلية للبلاد، وجعل الوحدات السياسية تعيش على الكفاف، فلم يشهد عن ذلك إلا المدن الساحلية والقبائل المتواجدة على مقربة من مراكز الاحتلال الأجنبي، بحيث كان لهؤلاء سفن خاصة والتي يتاجرون بها مع الأجانب من البرتغاليين وغيرهم، كما أن معظم هذه القبائل قد دخلت تحت الحماية البرتغالية لرغبتهم في استمرار المتاجرة والتعامل مع هؤلاء الأجانب وخاصة البرتغاليين<sup>2</sup>.

لكن لوحظ في بعض المناطق المكسورة كثرت الأغنام وهذا ما وفر للسكان ومكنهم من صناعة الجلود والعمل على دبعها فكثرت بذلك عملية نسيج الملابس خاصة الصوفية منها، كما كانوا ينتجون الزيت وكثرة

<sup>1</sup> - حسن الوزان أبو علي الملقب بليون الإفريقي (L'éon L'Africain) ولد حوالي 1496 في فاس ونشأ بها ثم رحل إلى الشرق وغربي إفريقيا، وعاصر بداية الأحداث التي تعرض لها المغرب أواخر العصر الوطاسي وقيام الدولة السعدية، أسره القراصنة الأوروبيين قرب الشاطئ التونسي سنة 1520م ونقلوه إلى إيطاليا حيث عمد نابليون العاشر وسماه (يخنا الأسد)، وفي إيطاليا تعلم اللغات الإيطالية واللاتينية كما كان يتقن الإسبانية والعبرية، الأمر الذي ساعده على تر: رحلاته إلى إفريقيا وإيطاليا بطلب من البابا وقد قام بتدريس اللغة العربية في كلية (Bologne) التي أعتبرت من أهم جامعات إيطاليا في عصر النهضة الحديثة، ثم غادر إلى إفريقيا الشمالية سنة 1528م ثم عاد ثانية إلى أوروبا وإنقطعت أخباره هناك. ينظر: عبد الكريم كريمة، المغرب في عهد الدولة السعدية، الرباط: منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، ط3، 2006، ص 13.

<sup>2</sup> - محمد السيد محمد أبو رحاب، العناصر الدينية والجنازية بالمغرب في عصر الأشرف السعديين، مصر: دار القاهرة، ط1، 2008، ص 29.

معاملاتهم مع العرب المجاورون لهم وكثر التجار وخاصة فئة اليهود<sup>1</sup> التي فاقت نسبة المسلمين بدرجات كبيرة والتي إنتشرت في المدن وحتى الأرياف ومثال ذلك في آيت عياض بمنطقة تادلا عشر على تجار وصناع ويهود، كانت هذه القرية غنية ببساتين العنب والتين بالإضافة إلى الجزر والزيتون، كما لوحظ في ناحية جازولية وجود كثرة المواشي والدواب وإنتاج الشعير، النحاس والحديد، وكانت تصدر أواني النحاس التي كانت تصنع وتصدر إلى أقاليم المملكة وأهم مناطق تواجدتها بتسنت وأغا وتيزونين وإغرم أما ناحية مراکش فقد كانت تقوم بإنتاج القمح والشعير ومختلف الفواكه كالتمر، العنب، الإيجاص والتفاح<sup>2</sup>، وكانت بذلك كل منطقة أو ناحية متخصصة في نوع معين من الانتاج وذلك على حسب قلاته أو كثرته وكانت منطقة حاحا معروفة بكثرة المعز والحمير كما كانت تنتج العسل والخوخ وزيت أركان. أما عن أعظم مركز صناعي كان بفاس التي تحتوي على حوالي 400 مطحنة ومصانع للأسلحة ومئة وعشرون معملا للنسيج<sup>3</sup>.

لقد وصف الروض المhton مكناسة بأنها عبارة عن بلدة خصبة فيها أثمار وعيون وثمار كثيرة وأشجار متنوعة وهي كما وصفها ابن الخطيب بقوله :

حَيْثُ يَا مَكْنَسَةَ الزَيْتُونِ      قَدْ صَحَّ غَدْرُ النَّاطِرِ الْمَفْتُونِ  
طِيبُ الْهَوَاءِ وَصَحَّةُ الْمَاءِ الَّذِي      يَجْرِي بِهَا وَسَلَامَةُ الْمَخْزُونِ  
وَكَفَاكَ شَاهِدًا حُسْنَهَا وَجَمَالَهَا      أَنْ أُوثِرْتُ بِالْقُرْبِ مِنْ زَرْهُونِ  
جَبَلٌ تَضَاكَتَ الْبُرُوقُ بِجَوِّهِ      وَجَرَتْ عَذَابُ مِيَاهُهُ بِعُيُونِ  
فَكَأَنَّهَا هُوَ بَرَبْرِي نَافِذٌ      فِي لَوْحِهِ، وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> عطا علي محمد شحاته ربه، اليهود في بلاد المغرب الأقصى في عهد المرينيين والوطاسيين، سورية- دمشق: دار الشفيق للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1996م، ص 82.

<sup>2</sup> أبي عبد الله محمد بن أحمد بن غازي العثماني المكناسي، الروض المhton في أخبار مكناسة الزيتون، الرباط: 1952، ص ص 05-09.

<sup>3</sup> إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص ص 213-214.

<sup>4</sup> أبي عبد الله محمد بن أحمد بن غازي العثماني المكناسي، المرجع السابق، ص 03.

و قال الأستاذ ابن جابر الغساني :

لَا تَنْكُرَنَّ الْحُسْنَ مَنْ مَكْنَسَةٍ      فَالْحُسْنُ لَمْ يَبْرَحْ بِهَا مَعْرُوفَ  
وَلَكِنْ تَحْتَ أَيْدِي الزَّمَانِ رُسُومُهَا      فَلَمْ يَبْرَحْ بِهَا أَبْقَتْ هُنَاكَ حُرُوفَ

وفيها أنواع الفواكه والمزارع والمسارح الهلاج المسمى بغرب الأندلس ويسمونه البرقوق، وفيها أنواع من التفاح فهو حلو وعطر يعقد مرتين في العام بالإضافة إلى الإيخاص ورومان والذي يعرف بعدة تسميات كالسفري والراهي وميمونة والأخضر والنعيمي. أمّا عن أنواع التين منها : الشعوي، ونوع آخر يقال له السبتي<sup>1</sup>.

لكن مع البدايات الأولى لظهور الدولة السعدية بدأت الأوضاع تعرف تحسنا وتطورا وإزدهارا وحركة تجارية نشيطة وذلك بفعل دعم الأشراف السعديين لهذه الأخيرة وخاصة ما قام به المغرب كوسيط بين البلدين السودان وأوربا إذ إعتبرت هذه التجارة العامل الأول والأخير الذي عمل على تقويض الكساد الزراعي وذلك بحل الأزمة المالية وتوفير أموال طائلة للخرينة وكذلك العمل على توفير بعض الحاجيات لها وذلك بجمع الثروات الطائلة من الذهب والعبيد، فتبادل التجارة مع الإنجليز وذلك بتقديمه لهم الذهب والسكر والكبريت مقابل الأقمشة التي كانوا يرسلونها لهم<sup>2</sup>، رغم ذلك فقد ساعدت بعض الظروف على إنتشار بعض الصناعات في المدن المغربية كصناعة النحاس مثلا والتي إنتشرت في سوس والأطلس الصغير حيث إشتهرت بمصنوعاتها الصوفية إضافة إلى صناعة السكر الذي شكل قطاعا حيويا للرفع من مداخيل الدولة إضافة إلى منطقة دكالة.

وهذه التجارة قد إزدهرت مع مرور الوقت حتى بلغت أوج قوتها في عهد أحمد المنصور الذهبي الذي تنوعت في عهده التجارة الداخلية والخارجية، إذ شكلت الفلاحة النشاط الرئيسي للسكان رغم أنها تميزت بمحدودية الإنتشار بينما القطاع الزراعي قد إعتد بالدرجة الأولى على زراعة قصب السكر كمنتوج رئيسي حيث خصصت له مزارع واسعة الانتشار وهذا فتح مجال التعامل مع الدول الأخرى<sup>3</sup> وخاصة أوروبا. من أهم المراكز الصناعية والمزارع التي إنتشرت فيها صناعة السكر نذكر :

<sup>1</sup> - أبي عبد الله محمد بن أحمد بن غازي العثماني المكناسي، المرجع نفسه، ص 03.

<sup>2</sup> - محمود السيد، المرجع السابق، ص ص 241-242.

<sup>3</sup> - إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص ص 381-383.

1- واد القصبوب قرب الصويرة .

2- واد تانسفت قرب زاوية سيدي الشيكّر ناحية شيشاوة .

3- ناحية القصابي .

4- في الشمال طنجة وسبتة .

5- في سهل سوس، وادي تامري، ماسة ناحية تارودانت، بالإضافة إلى ناحية القصابي<sup>1</sup> .

أمّا المصانع فقد كانت منتشرة بكثرة وتنوعت هذه الصناعات التي كانت معتمدة اعتمادا كليا على الخارج ومثال ما صنعه السلطان الذهبي والمتمثل في القصر المتنقل والذي وصفه كل من صاحب:

1. التحفة المسكية.

2. مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا لصاحبه أبي فارس عبد العزيز الفشتالي.

3. نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي إذ قال ( وهذا القصر كان مصنوع من سياج يمكن طيه وأخذه إلى أي مكان وكانت تقوم على تحويل المواد الأولية الفلاحية والمعادن المحلية ليظهر بذلك التنوع بين الاقاليم في الصناعات والحرف كالطرز والزرابي<sup>2</sup> .

أمّا في ميدان الصناعات الثقيلة، كانت تعتمد على الخارج وفي مقدمتها صناعة السفن الحربية ويضاف إلى ذلك صناعة مواد البناء، كما عرف المغرب لأول مرة الصناعة المدفعية التي كانت متمركزة في ترسانة مراكش التي كانت توجد بالقصبة حيث كان يعمل فيها عدد كبير من الأسرى المسيحيين تحت اسم أتراك وعلوج، وقد تم إكتشاف معدن النحاس وكان ذلك سنة (946هـ / 1539 م ) وكان أول من قام بصنع المدافع من البرونز بمدينة مراكش هو من مدينة مدريد قد دخل الإسلام<sup>3</sup> .

لقد كانت التجارة محتكرة بصورة كبيرة من طرف اليهود من إحتكار لمختلف الموارد الجمركية ضف إلى ذلك تجارة السكر وحتّى الحشيش والملح، البارود، التبغ، فلم تستطيع أي دولة من الدول سوى الدولة العظمى وهي دولة الإنجليز التي قامت بتأسيس شركة عظمى ومركز يسمى بـ (Barbary company) الشركة البربرية أو المغربية.

<sup>1</sup> - إبراهيم حركات، المرجع نفسه، ص 429.

<sup>2</sup> - عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 13.

<sup>3</sup> - إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 380.

لكن رغم كل هذا لم تكن حركة المبادلات التجارية الداخلية ذات حجم كبير وهذا راجع لإنتشار معظمها في البوادي وإعتمادها في عيشها على إنتاج حاجاتها الأساسية وذلك بالتبادل في الأسواق<sup>1</sup>، أمّا بالنسبة لحركة المبادلات التجارية الخارجية فإنها عرفت إنتاجا كبيرا ومن الأسباب الرئيسية التي جعلت حركة المبادلات التجارية الداخلية ضعيفة هي الارتباط الكلي للمزارعين بالأراضي والتركيز بالدرجة الأولى على النظام الإقطاعي في المغرب الأقصى وذلك من خلال التركيز على الصناعة خاصة في منطقة سوس وصولا إلى مراكش، فهذا النظام لم يسيطر على الأرض وغلاتها ورجالها رغم أن المناطق الرعوية كانت تعتمد على النظام القبلي الذي هو أساس القبيلة والذي يقوم على أساس الاختيار أي الأكبر سنّا<sup>2</sup>.

لقد أعجب الأجانب بمنتجات المغرب كالسكر والتمر إضافة إلى النحاس الأحمر والذهب مسكوكا أو مصنوعا، وعملية التصدير كانت تتم عن طريق التهريب بالإضافة إلى منتوجات أخرى نذكر منها: العنبر والشمع والخيول والجلود والموانئ، أمّا عن سكان المغرب فقد كانوا يحتاجون إلى الوسائل الحربية كالأسلحة والعلف وكذلك بعض قطع السفن الرئيسية والقصدير، فلقد عرفت هذه التجارة عدة توجهات فمثلا قبل إحتلال الإسبان والبرتغال للمعمورة كان التجار الأوربيين يتاجرون بالسلع بأثمان رخيصة خاصة المواشي في حين كانت تونس لا تزال تعاني من نكسة الاقتصاد الذي أثرت فيه غارات البدو والغزوات الأجنبية<sup>3</sup>.

لقد كانت إنجلترا من أكبر البلدان المتعاونة مع أوروبا والمصدرة للثياب والحرير والزعفران أمّا عن السلع المهربة منها المدافع البنادق وأشفار السيوف، البارود، الرصاص، القنابل، أمّا مدينة سلا فقد فقدت نشاطها الاقتصادي وراح عمراتها تحت ظل الحكم الوطاسي حتى غاية القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي إذ عادت إليها الحركة بتعاون مع المورسكيين<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - إبراهيم حركات، المرجع نفسه، ص 431.

<sup>2</sup> - جلال يحيى، المغرب الكبير، ج3، الإسكندرية: الدار القومية للطباعة والنشر، 1996، ص34.

<sup>3</sup> - إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 382.

<sup>4</sup> - إبراهيم حركات، المرجع نفسه، ص 382.

مراكش:

لقد شهدت هذه المدينة أعظم مظهر من مظاهر النشاط الاقتصادي واحتوت على أهم مقر ديوانة بالمغرب إذ كان مقر هذا الجمرك القصبة، كما كان يضم كذلك ديوانات أخرى ذات المساحات الشاسعة بساحة جامع الفتا والديوانة الكبرى من بناء محمد المهدي الشيخ المحتوية على 23 حجرة في الطابق السفلي والعلوي وكان لها حارس يعرف بالبواب المسلم وإتخذ منها الأوربيون فندقا وذلك سنة 1034 هـ - 1624م<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> - جلال يحيى، المرجع السابق، ص 35.

## المبحث الثالث: الوضع الاجتماعي والثقافي :

### 1. الوضع الاجتماعي:

#### أ) السكان :

لقد وصف حسن الوزان حياة العرب البدو بأنها كانت تتصف بالبؤس والفقر حيث إستقر البعض منهم بالسهول مثلاً سهل الهبط وسهل الحوز، بينما كانت الكثير من القبائل تمارس حياة الرحل، حيث كان النشاط المنتشر عندهم بكثرة الزراعي أو التجارة التي كانت تعتمد على تجارة المواشي والإبل إضافة إلى الخيل الذي كان يصدر إلى أوروبا، كما إشتغل بعضهم بعملية صيد الوعل وحمار الوحش والنعام .

وقد إنقسم هؤلاء العرب إلى نوعين عرب الصحاري وعرب السهول، حيث كان النوع الأول يصطحبون نسائهم أثناء الحروب وكانوا أغنى عرب الصحاري، إذ كانوا يمتلكون البقر والغنم ولدرجة كثرة الأغنام لم تكفيهم المراعي<sup>1</sup>.

أما النوع الثاني من العرب (عرب السهول)، فقد كانت الحياة البدائية هي المسيطرة والطاغية في المغرب خلال مطلع القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي ( 10هـ، 16م) والتي كانت تحت حكم نظام القبيلة أو العشيرة وذلك نظراً للإحتلال البرتغالي والإسباني لمختلف السواحل التي قاموا بتحويلها إلى مراكز إستيطان مستغلينها بذلك لصالحهم ونظراً للخراب الشامل لمختلف المناطق أصبحت معظمها خاوية على عروشها فمثلاً مدينة مراكش لم يعد سكانها إلا حوالي الثلث<sup>2</sup>، وقد إنتشرت في تلك الفترة عادات وتقاليذ ذميمة والتي سادت بين سكان المدن والقبائل وخاصة البوادي، بالإضافة إلى ظهور عدة خرافات وبدع حيث إنخرف الناس عن مبادئ الدين وقاموا بشرب الخمر وكان الوشع آنذاك سائدا وكثرت ظاهرة الغش الذي توسع لدى العلماء والأمراء والحكام<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 203.

<sup>2</sup> - محمد حجي، الحركة الفكرية في عهد السعديين، ج1، الرباط: منشورات دار الغرب للتأليف والتر: والنشر، مطبعة فضاضة، 1987، ص 51.

<sup>3</sup> - محمد السيد محمد أبو رحاب، المرجع السابق، ص 30.



كما شهد القرن العاشر هجري الموافق للسادس عشر ميلادي أوضاعا إجتماعية سيئة ناتجة عن الجفاف وقلة الإنتاج، حيث ترتب عن ذلك مجاعات مهولة دامت سنين من الزمن والتي راح ضحيتها الكثير من الناس، حتى أن البعض بل الكثيرون من الكتاب قد رأوا فيه فناء للبشرية بأكملها، وهذه المجاعات التي صادفت هذا القرن كانت سببا في إضعاف قدرة السكان على مقاومة العدو الأجنبي كما جعلتهم عرضة للعديد من الأمراض كأمراض المعدة ومرض الطاعون وهذه الأمراض كانت تتكرر وتندوم زمنا طويلا، حيث وجدت الدولة في ذلك صعوبات كثيرة منها التخطيط وكذلك التنظيم، لهذا التجأ بعضهم إلى الهجرة ومغادرة عدد كبير منهم البلاد بحثا عن حلول لهذه الوضعية وبدائل غير الموارد الفلاحية<sup>1</sup>. وهذا التراجع والنقص في عدد السكان أدى بدوره إلى تقليص المساحات الزراعية وتراجع كمية الانتاج وخير ما استدل به الحسن الوزان حين ذكر أن بعض القرى بل بعض المدن أصبحت عبارة عن أطلال مهجورة لا يسكنها انسان حيث دامت هذه الوضعية إلى حدود الربع الأول من القرن السادس عشر ميلادي 1525م.

وهذا ما أدى إلى قيام العديد منهم بأعمال وحشية فقد قاموا بنهب بعضهم البعض وبيع بعضهم البعض بأرخس الأثمان<sup>2</sup>، كما عرف هذا العهد غلاء عظيم حتى أنه سمي هذا العهد بعام البقول، كما إنتشر في هذا العهد السعال والذي دام فصولا عديدة ولم يسلم منه إلا عدد قليل حتى سميت الفترة بسنة الكحيكحة، وقد كان يسلم مغربي أو مغربية مقابل سلة تين أو عنب دمشقي، ومثال ذلك مدينة فاس التي شهدت سنة (1024هـ/1605م) أزمة غلاء شديدة بلغت ذروتها سنة (1022هـ/1613م)، حتى أصاب صاحب المارستان أحصى من الموتى من عيد الأضحى من سنة 1022هـ إلى ربيع النبوي من السنة بعدها أربعة آلاف وتسعمائة، وخرجت أطراف فاس وخلت المداشير ولم يبق بالمنطقة سوى الوحوش<sup>3</sup>.

## ب) اللباس :

لقد كانت الملابس الصوفية التي إشتهر بها سكان حاحا ويتعممون بعمامة من نفس الثوب ، وأغلب نسائهم كانوا سافرات الوجوه، وكانت العربيات تلبسن قميصا أسود وعريضا يعلوه رداء من نفس الثوب، وقد كانوا

<sup>1</sup> - العربي الصقلي: المرجع السابق، ص 197.

<sup>2</sup> - ديسكودي طوريس، تاريخ الشرفاء، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، الدار البيضاء: الجمعية المغربية للتأليف والتر: والنشر، ص 64.

<sup>3</sup> - أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، المرجع السابق، ص 191.

يضعون الأقراط على الأذن وفي سقاخن وكوعيهن أسوارا ويتلثمن بثوب مثقوب، ويلبسن سكان جازولة صدره بدون أكمام. أمّا عن الحديث عن أهل فاس فقد كانوا يرتدون ثيابا من الملف المستورة، كما كانوا يرتدون لباسا فوقه معطفا ورؤوسهم مغطاة بطاقيّة ملتفة بعمامة<sup>1</sup>.

### ت) المرأة :

كان الحديث عن المرأة قليل، فقد عثر على شخصية نسوية وهي زهور الوطاسية والتي تولت زمام الأمور بفاس بعد إنتزاع محمد الجوطي الذي بوع بفاس وذلك سنة (869هـ/1464م) إثر مقتل آخر ملوك بني مرين، وقد ظلت تدبر الأمور إلى جانب القائد الشجيري حتى إستولى محمد الشيخ على زمام الملك<sup>2</sup>.

### ث) الأعياد والحفلات :

كان المسيحيون يحتفلون بذكرى مولد المسيح، حيث يأكلون عشاءا خاصا في هذه الليلة، وهو عبارة عن حساء ذات مكونات بسيطة من عدة حضروات كالكرنب، اللفت والجزر، وفي اليوم الأول يقنع الأطفال بقناع ويطوفون مردين بعض الأناشيد، وفي مدينة جزولة كانوا يحتفلون بموسم مناسبة المولد النبوي ويقع في هذا اليوم تقديم الطعام إلى الغرباء مهما كان عددهم وإذا صادف هذا الموسم وقت الحرب يتم عقد الهدنة بين الطرفين، ويتولى ممثل في كل فريق يساعده مساعدين<sup>3</sup>.

### ج) الغناء :

عرف هذا العهد الزجل الذي سمي بالملحون والذي اشتق من كلمة لحن، وكانت أقدم قصيدة هي قصيدة (الحربي) لابن عبود الفاسي في وصفه معركة أبي عقبة بتادلا بين أحمد الوطاسي وأحمد الأعرج وذلك كان سنة 943 هـ ، الموافق لـ 1536م<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 207.

<sup>2</sup> - كامل عبد الرازق شقدان، تلمسان في العهد الزياني (633-962هـ/1235-1555م)، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 2002، ص 72.

<sup>3</sup> - إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 207.

<sup>4</sup> - إبراهيم حركات، المرجع نفسه، ص 210.

### ج) الطعام :

كانت هناك طبقتان وكل طبقة تختلف في طريقة تناوله، الطبقة المتوسطة والفقيرة تتكون من ثلاثة وجبات، فالفطور يتكون من الحريرة، إضافة إلى الخضر والفواكه أما العشاء فكان يتكون من الخبز والحليب ومع القليل من الفواكه، في فصل الشتاء يكثر الكسكس أما عن سكان حاحا كان هؤلاء يتناولون الخبز والشعير المطبوخ في الماء والموضوع في آنية مجوفة القعر، أما في فصل الصيف كان يغلى مع الحليب والزبدة، كما كان الاسفنج معروفا في هذا العهد، وكان لهم دكاكين خاصة بهم كما سجل ذلك صاحب زهرة الأس<sup>1</sup>.

لقد تطورت الحياة الاجتماعية في هذا العهد بكثرة الأجناس والتي ساهمت بشكل مباشر في تطوير حركة التجارة والمبادلات من زراعة وصناعة وذلك في مختلف المدن ونذكر على سبيل ذلك مدينة مراكش.

### مراكش:

هذه المنطقة عرفت بروز فئات جديدة عرفوا بالعلوج الذين كانوا من جنسيات متعددة والذين دخلوا تحت التأثير من أجل العمل، وفي هذا العصر إنتشرت اللغات الأجنبية وخاصة الإسبانية والتي ظلت إلى غاية أواخر القرن الحادي عشر هجري السابع عشر ميلادي (11هـ / 17م) إضافة إلى المسحيين العنصر الذي صاهر المغرب تحت حكم الدولة وقد إزداد بكثرة حتى بلغ عددهم حوالي ثلاثة آلاف ( 3 آلاف) في مدينة مراكش وحدودها في أواسط القرن السادس عشر ميلادي أوائل القرن العاشر هجري (10هـ / 16م) الذين أحدثوا انفجار في مدينة القصبة، فقد وصف مولى حالة أسرى مراكش وجود جماعة مقسدين وكانت منازلهم مبنية بالطين هشة، أما القواد بنيت مساكنهم بالحجر في أعلاها أبراج ذات فناء واسع، كما أعجب بكثرة بساطينها<sup>2</sup>.

### فاس :

زارها الرحالة الإنجليز وإسمه وليام ليتكو وذلك سنة 1609م وجدها تحتوي على فنادق ضخمة بها دور الفناء ومساجدها قدرت بحوالي 460 باستثناء القرويين. أما عدد السكان كانوا مليون ودورها بمائة وعشرون ألفا.

<sup>1</sup> - إبراهيم حركات، المرجع نفسه، ص 212.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه، ص 210.

## تارودانت :

عثر على اليهود والذين قدرهم مارمول بنحو ألف وكانت تحتوي هي الأخرى على ديوانة.

## تطوان :

إستقرار عائلات أندلسية تحمل عدة أسماء، أمّا الشخصيات البارزة التي توفيت بسبب المجاعة نذكر: الشيخ علي الفحل وكذا قاضي تطوان أبي عبد الله الكراسي ومفتي مراكش أبي عبد الله الحساني<sup>1</sup>.

## المرأة :

كانت تمثل المرأة صورة بمعنى الكلمة حريصة على بيت أهلها وقد برزت عدة نساء في هذا العهد واللواتي تعلمن على يد العديد من العلماء أمثال أبي محمد الغزوني وأبي الحسن ابن عثمان الشاوي، والمتمثلة في عائشة بنت أحمد بن عبد الله الإدريسية والددة ابن عسكر<sup>2</sup>، كما أخذت كذلك من الشيخ أبي محمد الهبطي<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - إبراهيم حرركات، المرجع نفسه، ص 386.

<sup>2</sup> - عائشة بنت أحمد الإدريسية، ومنهم والية الله تعالى السيدة كبيرة الشأن والددة أم أحمد عائشة بنت أحمد بن عبد الله بن علي بن محمد بن أحمد بن عمر بن عبد الله بن صالح بن علي بن عيسى بن بيان بن مشتار بن مزوار بن حيدرة بن غياث بن سلام بن محمد بن إدريسي بن عبد الله بن حسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كانت من عباد الله الصالحين ذات إجتهد في الصيام، وقيام الليل ودوام الذكر، فلا تأكل من أيام الله إلا القليل عزيمة الرجاء في الله تعالى، مجابة الدعوة. ينظر: محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني، دوحه الناشر لمحسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تح: محمد حجي، الرباط: مطبوعات دار المغرب للتأليف والتر: والنشر، ط2، 1977، ص 23.

<sup>3</sup> - هو أبو محمد عبد الله بن محمد الهبطي الطنجي، العالم الناصح المخلص قال في الدوحة: (كان رضي الله عنه آية من آيات الله تعالى في أرضه وعباده، قائما على قدم الجد في الزهد وإتباع الله والانزواء عن الدنيا تعليم العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يترك أحدا من أهله وبنيه وأصحابه يخرج عن التقشف وينقطع في الدنيا ولم ير أحد من الرجال والنساء بزأوته إلا أن يكون تاليا لكتاب الله وذاكرا لأسمائه متعلما بمعرفته إلى أن لقي الله تعالى على ذلك) قال: (وكتبت من خط الشيخ أبي الحسن الأغزواني المعروف بالحاج، قال أبو زيد عبد الرحمان بن شريح أن الله تبارك وتعالى يبعث لهذه الأمة عند رأس كل مئة من يجدد لها دينها الحديث ولا يبعد أن يكون منهم الشيخ سيدي أبو محمد الهبطي رضي الله عنه. ينظر: عبد الله كنون النبوع المغربي في الأدب العربي، ج1، ط2، ص 202.

## الغناء :

لقد إهتم السعديون بهذا اللون الأدبي والممثل في الغناء حيث عملوا على المحافظة على الطرب الأندلسي الأصيل، كما عملوا على تحسينه وتطويره، وقد برز عدد كبير من المغنيين خاصة رجال الملحنون الذين كان أحمد المنصور يأخذ منهم وخاصة قصائد عبد العزيز المغراوي، إذ ذكر عبد العزيز الفشتالي في مدح الجيش أزيد من ثلاث مئة موشح قد أنشأها المنصور أو أنها قيلت في مدحه، وقد نقل أحمد المقرئ بعضها في "نفع الطيب". كما وصف الأفراني الإعتقادات بالأعياد والتي أعاد تنظيمها على يد المنصور الذهبي<sup>1</sup>، وقد وصف هذه الإحتفالات صاحب التحفة المسكية، ويضيف كذلك صاحب "مناهل الصفا" أن المنصور لحّن يردي البياض في هذه الإحتفالات والتي كانت تحمل شعارا للدولة فيفتح المجلس الواعظ الذي ردد جملة من جمائل الرسول صلى الله عليه وسلم ثم أهل الذكر، ثم بحارة الشعراء وهم : القاضي الشاطبي، المفتي أبو مالك عبد الواحد الشريف، الوزير أبو الحسن علي بن منصور أبو فارس الفشتالي، محمد الهوزالي، محمد الفشتالي، الفقيه علي المسفيوي<sup>2</sup>.

أما الجانب الثقافي فقد عرف عهدين متباين وهما :

### 1. في عهد دولة بني وطاس:

إن أهم ما ميز هذه الفترة في تاريخ المغرب خلال القرن السادس عشر ميلادي، هو الدور الذي كانت تؤديه الزوايا والرباطات في مختلف مناطق المغرب، وقد أصبحت هذه الزوايا تسير المؤسسات في الأدوار المختلفة وفي جميع المجالات سياسيا وإقتصاديا وإجتماعيا، فلم يقتصر دورها على الجانب الديني فقط بل تعداه والتي ضربت جذورها في كل ربوع المغرب على إختلافها وهذا ما جعل الإمام الشيخ زروق والذي وصف لنا بعض الطرق السائدة في عصره "بقوله" (لقد تثبت الطرق الموجودة بأيدي الناس في هذه الأزمنة فلم اجد لأهلها فتحا ولا نورا ولا حقيقة ولا علما بل ولا ذوقا ولا فهما بل ولا لذة نفسانية غير لذة الرياسة والامتياز).و من أهم العوامل التي دفعت هذه الزوايا إلى القيام بهذه الأدوار المنوطة بها من عجز وغياب السلطة الوطاسية<sup>3</sup>، على مواجهة الإحتلال والأخطار الأجنبية التي أكلت الأخضر واليابس، لكن هذه الطرق مالت عن ما كانت عليه وهذا راجع لأسباب

<sup>1</sup> - عبد الله المرابط الترغي، فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة (منهجيتها- تطويرها- قيمتها

العلمية)، تطوان: ط1، 1999م، ص 636.

<sup>2</sup> - إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 210.

<sup>3</sup> - عبد الكريم كريمة، المرجع السابق، ص 20.

مختلفة كالإنحرافات والشذوذ التي عرفت بها بعض الطرق الصوفية إلا أنها لقيت نقدا لاذعا ومعارضة شديدة وخاصة من طرف أكابر العلماء والفقهاء .

لقد أحدثت هذه الطبقة انقلابات شديدة حيث كانت البوادي أكثر المناطق المتضررة، وهذه المنطقة هي التي سيطر عليها الجهل والظلمات<sup>1</sup>.

أما الجانب الثقافي فقد تأثر في تلك الفترة بهذه الأوضاع سواء الإقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية فلم تبقى جذور هذه الحركة الفكرية الثقافية بإستثناء مدينتي فاس وتطوان نظرا لوجود جامع القرويين الذي كان يعتبر المركز العلمي الأول أمّا عن تيطوان فبفضل الحركة والمهجرات الأندلسية المتوافدة عليها والتي عملت على تنشيط الحركة العلمية بها<sup>2</sup>.

أما في الحديث عن الحياة الثقافية لهؤلاء فإنهم بنوها على أساس الأوضاع السائدة، والتي عقيبتها أزمات حادة حيث يذكر إبراهيم حركات إعتدالا حين وصف الحياة الثقافية في عهد بني وطاس لأنها أقل من غيرها نشاطا في العلم والأدب والفكر حيث يقال: "لم تتوقف الحياة الفكرية في العهد الوطاسي لكنها تراجعت من بعض الوجود، فلم ينجب المغرب علماء أكابر كما كان في العهد السابق"، لكن مع هذا فقد كثرت الكتابات حيث كانوا يكتبون القرآن في ألواح خشبية أمّا الشرح فكان يقرأ في المدارس، كما بدأ الاهتمام بإنشاء الخزانات وقد عرف هذا العهد بروز عدد كبير من العلماء والفقهاء الذين إهتموا بالأدب والشعر، كما إهتموا في عهدهم بتخصيص أوقاف لكراسي التدريس بفاس نذكر منها :

1- كرسي ابن غازي سنة (919هـ / 1513م) لتدريس العمدة في الحديث .

2- كرسي التهذيب المدرسة الصبايحية وأستاذه عبد الواحد الونشريسي .

3- كرسي البخاري بشرح فتح الباري، الذي أنشأه السلطان أبو العباس بن محمد الوطاسي في منتصف القرن التاسع تقريبا .

4- رسالة ابن زيدون<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - حسن بن محمد الوزان الفاسي، المعروف بليون الإفريقي، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، ج1، لبنان: دار الغرب الاسلامي، ط2، 1983، ص 276.

<sup>2</sup> - محمد السيد محمد أبو رحاب، المرجع السابق، ص 31.

<sup>3</sup> - إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 277.

من أصناف هذه العلوم المتداولة في هذا العصر نذكر :

#### أ. علم الأدب :

من أهم رجال الأدب في هذا العهد كانوا من الفقهاء الذين جمعوا بين العلوم الدينية والشعر، كما جاء في

شعر محمد بن عبد الرحمن التازي المتوفى سنة (920هـ/1514م) حيث يقول :

مَهْمَا إِشْتَدَّتْ أَزْمَةٌ تَنْفَرِجُ      قَدْ أُبْدِلُ ضَيْقَكَ بِالْفَرَجِ  
مَهْمَا إِشْتَدَّتْ بِكَ نَازِلَةٌ      فَصَبِرْ فَعَسَى التَّفْرِيجُ يَنْجِي

ويقول ابن غازي صاحب الروض المتهون :

طَلَّقْتُ مَكْنَأَسَةً نَالًا      الشَّرْعُ يَأْبَى الرُّجُوعُ فِيهِ  
لَيْسَتْ لِدَارٍ سِوَى لِقَاضٍ      أَوْ عَامِلٍ الْجُورِ أَوْ سَيْفِهِ<sup>1</sup>.

#### أما في المدح :

عدم المبالغة حيث كان معظم العلماء يمدحون السلاطين كما يقول عبد الواحد الونشريسي مهناً أبا العباس

ببنائه قنطرة الرصيف:

جَسَرَ الرِّصِيفُ أَبَا الْعَبَّاسٍ جَدَّدَهُ      فَخَرَّ السَّلَاطِينَ مِنْ أُنْبَاءٍ وَطَاسٍ  
فَجَاءَ فِي غَايَةِ الْإِثْقَانِ مُرْتَفِعًا      لَمِنْ يَمُرُّ بِهِ مَنْ عَدُوَّةٌ فَاسٍ<sup>2</sup>.

#### ب. الفقه والحديث :

لقد نبغ في هذا العهد فقهاء كثيرون والذين كانوا متخصصين في بعض الفتاوى. أمّا الحديث عن مؤلفاتهم

فإنها اقتصرت معظمها على متن خليل والمدونة شرحا وتعليقا، ومن أهم المؤلفات في هذه الفترة:

1- رسالة الإخوان من أهل الفقه وحملة القرآن لابن ميمون الادريسي سنة (918هـ/1512م) .

2- المفيد في الفقه لإبراهيم الفكيكي سنة (900هـ/1494م).

<sup>1</sup> - إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 278.

<sup>2</sup> - إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 277.

- 3- شرح مختصر ابن الحاجب لسعيد الكرامي السملالي.
- 4- الكليات الفقهية لابن غازي .
- 5- شفاء الغليل بشرح خليل لابن غازي .
- 6- تحفة الحكام لابن زقاق<sup>1</sup>، وأحمد الغساني الفاسي (920هـ/1514م) من الشعراء والفقهاء ومن نظمه:

إِذَا كُنْتُ فِي فَاسٍ وَلَمْ تَكُنْ سَاكِنًا      بِطَالِعِهَا الْأَعْلَى مَا أَنْتَ بِفَاسٍ  
لِعَرِيَانَةٍ طَارَتْ هُمُومِي كُلَّهَا      إِذَا شَجَعَ السَّاقِي وَدَارَ بِأَكْوَاسِي<sup>2</sup>.

### ج. الطب :

رغم وجود أطباء بعاصمة الوطاسيين فاس، إلا أنه تم ظهور البعض منهم نذكر: عبد الوهاب الزقاق السابق الذكر، وعبد الرحمن المدرس ألفية ابن سينا في الطب في مدينة فاس، وكذلك إهتموا بعلم الرياضيات خصوصا الحساب ومن بين الرياضيين نذكر :

- 1- عمر بن عبد الرحمن الجزنائي المتوفى في أوائل القرن العاشر.
- 2- عبد الله بن عمر المطغري تلميذ محمد بن قاسم الغوري والأستاذ المهدي السعدي الذي توفي بدرعة سنة (927هـ/1520م) .
- 3- يعقوب بن يحيى اليدري الذي جمع بين الفقه والنوازل والرياضيات<sup>3</sup>.
- 4- عبد الحق المصمودي تلميذ أبي عبد الله اليفرنى المكناسي المتوفى سنة (955هـ/1548م) وهو الذي جمع بين علم الرياضيات وعلم الفقه، أمّا علم الجغرافيا فقد شهد في هذا العصر أروع وأدق كتاب جغرافي تم تداوله ألا وهو كتاب الحسن الوزان وصف إفريقيا. (Description de l’afrique)<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - عبد الوهاب الزقاق: هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب الزقاق حفيد الشيخ حسين، وكان لهذا الرجل خزانة عظيمة من خزائن العلم كان، كبير المهمة غزير العلم تولى القضاء والإفتاء بمدينة فاس بعد وفاة الشيخ عبد الواحد الونشريسي، قتل شهيدا رحمه الله بفاس تحت السيف وذلك كان عام 961هـ/1553م. ينظر: محمد بن عسكر الشفشاوي، المرجع السابق، ص55.

<sup>2</sup> - هوارية بكاي، العلاقات السياسية والروابط الثقافية بين المغربين الأوسط والأقصى (633هـ-962هـ/1233م-1554م)، رسالة الدكتوراه، جامعة دمشق، 2013-2014، ص ص 347-353.

<sup>3</sup> - إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 235.

<sup>4</sup> - إبراهيم حركات، المرجع نفسه، ص 236.



## 2. في عهد دولة السعديين:

لكن مع ظهور الدولة السعدية على الساحة تغيرت الأحوال والأوضاع في المغرب الأقصى خلال القرن السادس عشر ميلادي العاشر هجري، حيث عرفت نهضة علمية ظهرت مقوماتها ونتائجها في مختلف العلوم وذلك بعد إستقرار الأوضاع والأحوال، بالإضافة إلى الأمن إذ عمل رجال العلم على إعادة بناء وإحياء الثقافة الفكرية في جميع المجالات والميادين وخاصة في عهد أحمد المنصور الذهبي، فقد أصبح العلماء أكثر نشاطا وأعظم إجتهدا<sup>1</sup>، فلم يكن السعديون أقل حماسة ممن مضوا قبلهم في طريق النهضة العلمية والثقافية والحضارية ومن أهم الأسباب الرئيسية لهذا التطور والانتعاش: هي إهتمام العلماء والسلاطين بالجانب العلمي فهذه الثقافة لم تولد من العدم بل أنها كانت موجودة من قبل وذلك من خلال ما تركته مخلفات العهد الوطاسي، لكن هذه الثقافة الفكرية كانت في مرحلة جنينية تحتاج إلى قوة لإخراجها<sup>2</sup>.

أما عن أهم المؤسسات التعليمية وطريقة التعليم في المغرب الأقصى الكتاب والمعروف بعدة تسميات المسند، الجامع، وأحيانا خارجها حيث كان الطالب يقوم بمهمة التربية وإمام المسجد، والمؤذن بحيث يجلس المربي في ركن من الأركان وأمامه الأولاد على الحصير، وقد كانوا يحفظون القرآن الكريم بالاعتماد على الذاكرة ويتعلمون قواعد الصلاة والوضوء إضافة إلى الخط وأحكام التجويد<sup>3</sup>.

ومن العوامل الأخرى التي ساهمت في تدعيم حركة العلم والعلماء هي القراية وحكم انتماء الدولة السعدية إلى السلالة النبوية، هذه الأخيرة جعلتهم يحملون لواء السلطة والتي أدت إلى كثرة العلماء والطلبة، فانتشرت بذلك المراكز الثقافية في المدن حتى وصلت إلى الأرياف حيث وامتزجت هذه العناصر العلمية الأندلسية المشرقية بالعناصر المغربية مما أدى إلى اتساع نطاق المعرفة، تم تزايد عدد المراكز بتأسيس المساجد والزوايا التي لعبت الدور الريادي في ظهور شمس الإشعاع الفكري<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - إبراهيم حركات، المرجع نفسه، ص 237.

<sup>2</sup> - محمد حجي، المرجع السابق، ص 339.

<sup>3</sup> - محمد العربي معريش، المغرب الأقصى في عهد السلطان الحسن الأول، بيروت: دار الغرب الاسلامي، ط1، 1989، ص 156.

<sup>4</sup> - محمد حجي، المرجع السابق، ص ص 364 - 367.

أما العلوم المنتشرة في هذا العصر نذكر :

علم التفسير، علم اللغة، علم الأصول، علم الفقه، علم الكلام، بالإضافة إلى علم المنطق وعلم التصوف علم

اللغة وعلم النحو وعلم البلاغة ومن أدبائها نذكر :

علي بن عبد الله صاحب ديوان الخطب .

عبد الرحمن التمنازي صاحب ديوان الشعر .

النابعة الهوزالي صاحب شرح ديوان المتنبي وعبد العزيز الفشتالي صاحب مقدمة لديوان المتنبي وشرح مقصورة

المكودي. أما علم التاريخ فإنه قد عرف تطورا وبرز عدد كبير من المؤرخين نذكر : العلامة المقرئ صاحب كتاب

نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، كتاب أزهر الرياض عبد العزيز الفشتالي، أبي العباس ابن القاضي ومحمد

بن علي النسب وغيرهم، ثم بعض العلوم التجريبية ومن أشهر الذين نبغوا في هذا العهد السعدي نذكر: الحاج

الشبطي المتوفى سنة (960هـ/1552م) صاحب كتاب (الكتاب في تفسير الكتاب)، ابن القاضي صاحب

كتاب ( الفتح النبيل في أسماء العدد في التنزيل)<sup>1</sup>.

- عبد الله بن الطاهر الشريف صاحب الدر الأزهر في مناسبات الآيات والصور المتوفى سنة

(1045هـ/1635م).

- عبد الواحد الأنصاري السجلماسي المتوفى سنة (1054هـ/1644م) صاحب كتاب تفسير القرآن.

كما إزدهرت علوم العمارة مثل : قصر البديع<sup>2</sup>، وأنشأت لأول مرة شبه مدرسة لتعليم الكتابة والخط، وكان

ذلك بمدينة مراكش على يد البارع عبد العزيز بن عبد الله السكتاني المولود عام (956هـ/1549م)، هذا ما

ترجمه لنا القاضي المتقدم لتعليم الخط بجامع الشرفاء من مراكش المحروسة كما هي العادة بالقاهرة وغيرها من بلاد

المغرب ، كما برز الخطاطون من أبرزهم السلطان أحمد المنصور الذهبي ابن السلطان محمد الشيخ السعدي والمتوفى

في سنة (1012هـ/1603م) الذي كان يجيد الكتابة بالخط المشرقي وهذا ما أكدته الفشتالي فيقول عن المنصور

(لقد بلغ به الإغراق في مذهب الحزن أيده الله إلى أن اخترع لهذا العهد أشكالا من الخط على عدد حروف

المعجم<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - محمد حجي، المرجع نفسه، ص 385.

<sup>2</sup> - نفسه، ص ص 364 - 367.

<sup>3</sup> - مارمول كرنجال، إفريقيا، تر: محمد حجي وآخرون، الرباط: دار المعرفة للنشر والتوزيع، ص 14.

يعتبر عصر أحمد المنصور الذهبي من أزهى الفترات في تاريخ الدولة السعدية من جميع النواحي في مقدمتها الحياة الفكرية وهذا ما يتجسد في تزايد معاهد العلم لاهتمامه بالمنشآت الدينية والعلمية ببناء وترميمها، وقد كان أحمد المنصور الذهبي يحضر مجالس العلم والدراسة بجامع القرويين عند حضوره إلى مدينة فاس، حيث يكرم العلماء القائمين على ذلك وكان معه فقهاء أهل فاس فلم يقتصر التدريس على الجامع بل تعداه في جوامع عديدة في فاس، وما أشتهر به أحمد المنصور تشجيعه للعلم والعلماء وطلبة العلم<sup>1</sup>، وكل ذلك إجلالا للعلم ومحبة لأهل الخير. حيث كان يحثهم على حركة التأليف في شتى أنواع المعرفة وبرزت عقلية المنصور في الميدان المعماري، وذلك بوضعه تصاميم البناء وهي المظاهر الأخرى التي برزت من الناحية الثقافية خلال حكم المنصور كاهتمام المولى بتعريب العلوم والإختراعات العلمية التي ظهرت في بعض دول أوروبا الغربية الناهضة وقد ساهم في ذلك علماء اللغة وتعددها<sup>2</sup>.

أما الحديث عن المؤسسات العلمية والاسر التعليمية بالمغرب الأقصى المختلفة والتي مارست نشاطها في إثراء الحركة الثقافية العلمية وأدت إلى ازدهار الثقافة في المغرب الأقصى خلال القرن السادس عشر ميلادي العاشر هجري، فقد عرفت هذه المؤسسات والأسر طورين مختلفين ومتباينين نذكر مثلا :

في عهد أحمد المنصور الذهبي عرفت مدينة مراكش أوج عزها العلمي إذ تكاثرت العلماء والطلبة في المساجد والمدارس ، ولعبت هذه المدارس والمساجد دورا بارزا في نشر الثقافة فالمسجد بمختلف أشكاله وأحجامه كان أداة للتربية والتعليم ونشر الثقافة، ومن بين هذه الجوامع الرئيسية بمراكش جامع حومة بن صالح وجامع شفشاون الذي بناه أبي عبد الله محمد بن راشد في أواخر القرن السادس عشر ميلادي وقد ألحقت بالجامع خزانة ومدرسة<sup>3</sup>، ومن أقدم الزوايا التي ظهرت بالمغرب الأقصى خلال القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي، زوايتين أحدهما بفاس والاخرى بالعيون ومن أبرز الزوايا التي كان لها سبب في هذا العهد الزاوية الدلائية والتي أسسها أبو بكر حوالي عام (974هـ/1566م)، وقد أجتهد في تكثير العمارة من حول زاويته وعمل على بناء الدور والدكاكين بالإضافة إلى المساجد والمدارس وبقيّة المرافق الضرورية حتّى أصبحت بذلك مدينة كبيرة وعامرة بالسكان، حيث كان لها دور علمي كبير في عهد الدولة السعدية<sup>4</sup>، أمّا عن المدارس نذكر :

<sup>1</sup> - عبد الله كنون، المرجع السابق، ص ص 237 - 238.

<sup>2</sup> - عبد الكريم كريمة، المرجع السابق، ص ص 313 - 319.

<sup>3</sup> - محمد زروق، دراسات في تاريخ المغرب، الدار البيضاء: إفريقيا الشرق، 1990، ص 72.

<sup>4</sup> - محمد حجي، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، الرباط: ط2، 1988، ص ص 31 - 60.

مدرسة التاودي بن سودة، ومدرسة حمدون بن الحاج وبنيه، ومدرسة بن أبي حفص ومدرسة الحلفائيين، بالإضافة إلى مدرسة النحاسين، ومدرسة الشراطين<sup>1</sup>.

أخيرا نذكر المكتبات ودورها في الجانب الثقافي وتأثيرها ولقد كثرت المكتبات وتنوعت، فمكتبة القرويين التي قيل أن السلطان المريني أبو عنان هو الذي أسسها أما السلطان أحمد المنصور الذهبي هو الذي وسعها<sup>2</sup>، وأخيرا أشرنا إلى مساهمة الأسر العلمية في المغرب الأقصى مع مدى مساهمتها في الجانب الثقافي كما ذكر الحفناوي في كتابه (تعريف الخلف برجال السلف).

### 1. مدينة فاس .

أسرة الدلائين : نماذج من علمائها :

- محمد الحاج الدلائي الذي يعتبر أول من تولى القيادة السياسية للزاوية الدلائية ما بين (1046هـ - 1079هـ / 1636م - 1668م)

- عبد الله بن السلطان محمد بن الحاج الدلائي<sup>3</sup>.

أهم مخلفات الأسرة الدلائية :

### الحديث والسيرة:

- محمد بن عبد الرحمان الدلائي، الزهد في الخلق الحمدي.

- محمد بن عبد الرحمان الدلائي، زهرة الحقائق وخلاصة الحقائق لسيرة سيد الخلائق.

### الأصول والفقه :

- محمد المسناوي الدلائي، نصرة القبض والرد على من أنكر مشروعيته.

### الشعر :

- محمد بن محمد المرابط، ديوان شعر.

- محمد بن عبد الدلائي، تحريك الساكن وتصميم الشوق الكامل إلى زيارة طيبة ومن بها ساكن رحلة حجازية نظمية<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> عبد الرحمان زيدان، الدرر الفاخرة بمأثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة، الرباط: ص 20.

<sup>2</sup> محمد العربي معريش، المرجع السابق، ص 168.

<sup>3</sup> محمد الضعيف الرباطي، تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعدية)، تح: أحمد العماري، دار المآثورات، 1986، ط 1 ص 09.

<sup>4</sup> محمد حجي، المرجع السابق، ص 251.

### إستنتاج:

- نستنتج أن أوضاع المغرب الأقصى خلال القرن السادس عشر للميلاد قد تميزت بعدة خصائص في جميع المجالات منها
- فمثلا الوضع السياسي تميز بضعف السلطة وتراجعها على المستويين (الداخلي والخارجي) وكذلك باحتلال جل مدنها من طرف الغزو البرتغالي.
  - كما شهد العديد من الثورات الداخلية بين (الأبناء والأعمام) حول السلطة، وخاصة في عهد الدولة الوطاسية، وهذا ما كان له نتائج وأثار سلبية على وضعية البلاد.
  - أمّا فيما يخص العهد السعدي فقد عرف تغيرا في الأوضاع وخاصة الجانب الثقافي.
  - حيث كان يشهد تطورا ملحوظا وذلك بفضل الإهتمام بالعلم والعلماء من طرف السلاطين.
  - وعموما نقول أن أوضاع المغرب قد ميزتها خصائص مشتركة من العهد الوطاسي الذي لم يدم فترة زمنية طويلة إلى العهد السعدي.

# الفصل الثاني

سقوط الحكم الوطاسي

وبداية الحكم السعودي

بالمغرب الأقصى

المبحث الأول: أسباب سقوط الحكم الوطاسي ونتائجه.

المبحث الثاني: بداية الحكم السعودي بالمغرب الأقصى.

## تقديم:

يعتبر العهد الوطاسي عهد ضعف وتراجع حيث شهد المغرب خلال هذا العهد سلطة مركزية ضعيفة عاجزة عن حماية أراضيها والدفاع عن ممتلكاتها، والوقوف في وجه المحتل الأجنبي البرتغالي في ظل قوة نفوذ الزوايا ومشايخها والتي أصبحت لها مهمة كبيرة كتولي حركة الجهاد ضد المستعمر، وهذا كان خلال حكم الوطاسي الذي تولى زمام الأمور بعد سقوط دولة بني عمومتهم المرينيين، غير أن حكم هؤلاء لم يدم فترة طويلة، حيث انحصر نفوذهم في القسم الشمالي من البلاد وهذا راجع إلى مجموعة من الأسباب التي أدت إلى سقوط السلطة الوطاسية، كالثورات السائدة بين الأبناء والأعمام، وكذلك زيادة أطماع المحتل الأجنبي خلال هذا العهد، وهذا ما زاد من معاناة السكان، وهنا أصبح الوطاسيين عاجزين تماماً عن التصدي للمحتل البرتغالي، ما جعل القبائل يتخذون منهم موقفاً معادياً.

وأمام فشل الحكم الوطاسي وسقوطه بدأ ظهور دولة الأشراف السعديين الذين إستقروا بدرعة منذ القرن (8هـ / 15م)، حيث إستطاع هؤلاء أن يتحصلوا على المكانة التي يطمحون للوصول إليها وهذا بفضل تلك المدينة وخيراتهما، إضافة إلى نسبهم الشريف الذي كان له الفضل الكبير في ذلك، حيث كانت إنطلاقات هذه الدولة مع مؤسسها محمد القائم بأمر الله، الذي كان هدفه هو التصدي للعدو الأجنبي البرتغالي كما ساعده في ذلك إبنه، أحمد الأعرج ومحمد الشيخ حيث إستطاعت هذه الدولة أن تحقق إنتصاراتها على البرتغاليين وتلحق به خسائر كبيرة.

## المبحث الأول: أسباب ضعف الحكم الوطاسي ونتائجه

### أ. الأسباب:

نتيجة لضعف الدولة المرينية ونهايتها جاءت دولة الوطاسيين واستولت على الملك في جو تسوده اضطرابات شديدة هزّت أركان البلاد، وقد استمرت هذه الدولة في حكمها مدة قرن من الزمن أي من سنة (876هـ/1471م) إلى غاية سنة (961هـ/1554م) حيث وجد هؤلاء صعوبات لتثبيت ملكهم في هذه البلاد، إذ جاء الأتراك العثمانيين إلى الوطن الجزائري وقضى المسيحيون على الجماعات الإسلامية بالأندلس بينما البرتغاليون والإسبان فإنهم تسلطوا على الشواطئ المغربية وفي ظل تلك الظروف المضطربة تمكن هؤلاء من التزول إلى طنجة واحتلالها دون مقاومة وذلك عام (876هـ/1471م)<sup>1</sup>.

أمّا فيما يخص الحديث عن أصل الوطاسيين فقد اختلفت الآراء والأقوال حول هذا الأصل فمثلاً إذا أخذنا بقول صاحب الذخيرة فإن بني وطاس ينتمون إلى منهاجة وبالتالي إلى لمتونة فهم كما يقول هذا المصدر: "من ولد وطاس بن المغر بن يوسف بن تاشفين، ملك المغرب بأسره والأندلس بأسرها"<sup>2</sup>.

وهناك من يقول أن بني وطاس هم فرقة من بن مرين، غير أنهم ليسوا من بني عبد الحق<sup>3</sup> وعند دخول المرينيين المغرب قاموا بتقسيم أعماله فكان لبني وطاس بلاد الريف واعتبرت ضواحيها لنزلهم ومصادرها ورعاياها كانت لجباياتهم، ويذكر بن خلدون: "أن بني الوزير هؤلاء يرض أن نسبهم دخيل في بن مرين وأنهم

<sup>1</sup> - محمود السيد، المرجع السابق، ص 238.

<sup>2</sup> - إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج2، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، ط1، 2000، ص 176.

<sup>3</sup> - عبد الحق: وهو رئيسا الدولة المرينية، شخصية قيادية ظهرت في الدولة المرينية ولد سنة 823هـ/1420م) التي نسب إليها وبدء هؤلاء المرينيين وشؤون الحكم الموحد على عهد يوسف المنتصر، حيث جهز الموحدون لهم جيشاً وهذا من أجل القضاء عليهم (المرينية) ونشبت بينهما معركة انتصرت فيها قبائل المرينيين على الموحدين، وقتل عبد الحق في هذه المعركة وذلك سنة 869هـ/1465م بفاس وخلفه عثمان ابنه. ينظر: عبد الله العروي، مجلد تاريخ المغرب، بيروت: الدار البيضاء، ط5، 1996، ص 147.



من أعقاب يوسف بن تاشفين اللمتوني لحقوا بالبدو ونزلوا على بني وطاس وشجت فيهم عروقهم حتى لبسوا جلدتهم ولم يزل السر متربعاين أعينهم لذلك والرياسة شائخة بأنوفهم<sup>1</sup>.

لقد تميز هذا العصر باندلاع صراع مرير دام مدة طويلة كان بين مختلف المذاهب الدينية المسيحية التي ظهرت في النصف الأول من القرن السادس عشر ميلادي والكاثوليكية حيث يعود سبب هذا الصراع إلى الثروات الطائلة التي كان يمتلكها رجال الكنيسة، وعرفة البابوية محنة ما تقدم في تاريخ المسيحية إذ دعا لورث الألمانى إلى رفض طاعة الباب ورجوع إلى الكتاب المقدس، وفي خضم هذه الأحداث كانت المطبعة قد اتخذت طريقها بين دروب النهضة الحديثة إذ كان فضلها لا يقدر بثمن بما تقوم به لنشر المعرفة والعلوم<sup>2</sup>.

ومن مميزات هذا العصر نذكر:

- تلاشي واضمحلال قوة الدولة حيث كان هذا العهد مختلف كثيرا عن باقي العهود التي سبقته مثل العهد المرينيّين إذ كان سلطاتهم منحصرا أحيانا على مدينتي: (فاس ومكناس) وما جاورهما ، وهذا ما جعل المغرب خارج عن سلطاتهم<sup>3</sup>.
- سقوط آخر دولة إسلامية في يد الإسبانيين (غرناطة) والتجاء آخر ملوك بني الأحمر أبي عبد الله الصغير إلى فاس دون أن يقوم الطاسيين بأي عمل للدفاع عن الإسلام في الأندلس<sup>4</sup>.
- تعرض العديد من المدن المغربية للغزو البرتغالي، وخاصة المهمة منها وهذا بهدف إتخاذها كمراسي لتقلهم إلى إفريقيا ومنها يجتازون الشاطئ أو يتمكنون من الدخول إلى البلاد فيستولون على الأراضي الزراعية والمساكن كإستلائهم على مدينة المعمورة (مهدية) وذلك سنة (920هـ/1514م)، لكن لم تقم الدولة الوطاسية بأي تدخل وهذا لأن قوتها العسكرية كانت مؤقتة تفتقر إلى القوة وهذا ما يفسر قصر فترة الحكم الوطاسي<sup>5</sup>.

<sup>1</sup> - أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج2، بيروت- لبنان: دار الكتاب العلمية، ط1، 2007، ص 183.

<sup>2</sup> - إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 195.

<sup>3</sup> - عبد الكريم غلاب، المرجع السابق، ص 271.

<sup>4</sup> - نفسه، ص 271.

<sup>5</sup> - ثريا بريدة، الجيش المغربي تطوره في القرن التاسع عشر، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1997، ص 50.

- معاداة الكثير من الناس وخاصة العلماء بسلطة الوطاسيين وهذا لأن معظم سلاطينها كانوا قد اتخذوا موقف سلمي إتجاه إحتلال الأجنبي، والدفاع عن دولتهم رغم ضعف قوتها<sup>1</sup>.

رغم كل ما قامت به هذه الدولة إلا أنها ظلت تعاني من مشاكل وحروب أهلية بين الأبناء والآباء والأعمام حول تولي السلطة، كما ظهر الصراع بين القبائل والوطاسيين كقبائل بني سعد في الجنوب وهنا تمكن السعديون بزعامة الشريف محمد المهدي من الاستلاء على فاس وإسقاط بني وطاس عام (948هـ/1541م)، وعلى هذا الأساس ما هي العوامل التي أدت إلى سقوط هذه الدولة:

لقد ساهمت جملة من العوامل في سقوط دولة بيني وطاس واضعاف حكمها نذكر منها<sup>2</sup>:

1. الاحتلال الأجنبي لمدين وموانئ المغرب وخاصة الدولة الوطاسية التي أضحت في وضع خطير باحتلال العديد من مدنها من طرف البرتغاليين فسقطت بذلك مدينة طنجة في يدهم سنة (869هـ/1464م) بعد سقوط سبتة التي احتلوها مدة 265 سنة والدولة المرينية كما سقطت الكثير من الموانئ على الشاطئ الأطلسي في عهد أبي سعيد عثمان، ثم سقطت باقي الموانئ المغربية، التي تقع على مستوى الشاطئ الأطلسي حيث كانت الدولة الوطاسية في هذا الوقت ضعيفة ولم تستطع أن تدافع عن نفسها وعن الأراضي الإسلامية، وهذا يعتبر كعامل أو سبب جوهري في نهايتها وإضافة إلى الغزو الإسباني الذي احتل هو الآخر الكثير من المدن المغربية كإحتلال مليلية<sup>3</sup> سنة (902هـ/1496م)، الذي ساهم هو الآخر في تدهور الدولة الوطاسية وإضعافها<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - عبد الكريم غلاب، المرجع السابق، ص 272.

<sup>2</sup> - أبي العباس أحمد بن خالد الناصري، المرجع السابق، ص 168.

<sup>3</sup> - مليلية: هي مدينة مغربية توجد بالساحل الشرقي لشبه جزيرة قلعة على بعد 14 كلم من مدينة الناظور يرى بعض المؤرخين الأجانب أنها من بناء الفينيقيين، أسست في الاسلام سنة 98هـ على يد مليل إلى يفرن الذي كان مع الإدريسي بن صالح مؤسس مدينة الناظور، وفي شهر شتنبر (سبتمبر) سنة 1497م استولى عليها جيش إسبانيا بقيادة دوق مدينة صيدونية وأصبحت منذ ذلك الوقت نقطة من نقاط الصراع المسلح بين المغرب وإسبانيا ولا يزال الوجود الإسباني بها مصدر تهديد لأمن المغرب وسيادته وعنصر من عناصر التوتر بين الدولتين لن يزول، إلا بانسحاب إسبانيا وتسليم كافة التسليط الذي تمارسه على الدولة المغربية. ينظر: أبي بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيدق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1971، ص 55.

<sup>4</sup> - عبد الكريم غلاب، المرجع السابق، ص 280.

2. الاستقلال الذاتي لبعض المدن المغربية التي كانت تعتمد على توريث الحكم كإمارة شفشاون وتيطوان<sup>1</sup> ومراكش، لكن هذا لا يعني أن استقلال هذه المدن هو استقلال كامل التراب المغربي، بل إن هناك بعض المدن التي مازالت تحت سيطرة العدو الغاشم الذي حطم للدولة المغربية هيبتها وخاصة الدولة الوطاسية التي ضعفت قوتها ومهمتها الحربية والإدارية وهذا ما جعلها تلتجئ إلى توقيع معاهدات مع النصارى المحتلين من الإسبان والبرتغال من أجل كسب مصالحها وتوسيع نفوذها وسلطتها<sup>2</sup>، لأن ضعف قوتها الحربية والإدارية سوف يؤدي بها إلى سقوطها وتقليص نفوذها الذي لم يتعدى حدود القسم الشمالي من البلاد، وأن بوصول هذه الدولة إلى السلطة إضمحل المغرب الأقصى<sup>3</sup>.

3. لقد أصبح للصالحاء نفوذ قوي وهذا ما دفع بالناس للتقرب منهم وبكثرة خاصة بعد أن أحسوا بعجز الدولة الوطاسية وعدم قدرتها على حماية الأراضي المغربية من التحرشات الأجنبية وخاصة الغزو البرتغالي وهذا ما أدى بالناس إلى التغير في وجهاتهم فمنهم من أصبح ذات وجه روحي والبعض الآخر ذات توجه مخالف للتوجه الروحي إلا وهو التوجه الجهادي أو القيادة الفعلية مثل قيادة الدجالون الذين أصبحوا يمتلكون قلوب العامة، كما فعل عمر بن سلمان السيف هذا الخير قد استمرت ثورته عشرين عامًا كاملة ضد الدولة نفسها<sup>4</sup>، إضافة إلى قيادة الجهاد حيث كان السكان المغاربة يطلبون من محمد بن محمد بن عبد الرحمان الحسني تولي هذه القيادة ونقول أن سلطة السعديين الشرفاء كانت منذ بدايتها مختلفة كل الاختلاف عن نفوذ الزوايا لهذا كان هؤلاء السعديين يحققون الانتماء على أعدائهم ومنافسيهم المتحالفين مع المحتلين الأجانب وبالأخص مع البرتغاليين مثل ابني محمد القائم بأمر

<sup>1</sup> - تيطوان: هي مدينة مشيدة على صخرة في منحدر جبل، أسوارها لسبنة مبنية في حد ذاتها ولكن الصخور التي بنيت عليها تجعلها أكثر مناعة، وهذه المدين على شكل صلب سان اندري، سكانها في غاية الثراء سواء بسبب القرصنة التي يباشرونها أو بسبب التجارة التي يمارسونها مع مملكة الجزائر ومع مدينتي طنجة وسبتة في أسفلها سهل جميل جدا يشتمل على عدة بساتين طروم، حيث تقدر دائرة هذا السهل بخمسة فراسخ وتحيط به جبال صخرية شامخة كما يستخرج منه هذه المدينة كمية من الشموع والجلود والعنب الدمشقي الممتاز وتصير إلى أوربا معظم سكانها أندلسون وهم من المسلمون الذين طردوا من اسبانيا. ينظر: رحلة الأسير مويط، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني: دار المناهل للطباعة والنشر، 1990، ص ص 76-77.

<sup>2</sup> - محمد علي محمد الصلاي، صفحات من التاريخ الاسلامي (دولة الموحدين)، ج5، عمان: دار البيارق للنشر، 1998، ص 321.

<sup>3</sup> - إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 176.

<sup>4</sup> - المرجع نفسه، ص 176.

الله أحمد الأعرج ومحمد الشيخ اللذان إنتصرا على يحي بن تاعفوفت حليف البرتغاليين في دكالة عام 924هـ/1518م<sup>1</sup>.

4. كان السعديون يحظون بمكانة كبيرة وتعظيم كبير من طرف المغاربة ويعود هذا إلى نسبهم الشريف الذي جعلهم يعملون على مساندة الأمر لصالحهم بداية من نقطة فشل الوطاسيين<sup>2</sup>، الذي كانت العصبية الزناتية فاعلة فيهم، عكس الشرفاء السعديين الذين لم تكن لديهم عصبية محددة حيث اعتمدوا على الحمية المتمثلة في الجهاد ألا وهي الحمية الوطنية او الدينية، إضافة إلى استغلالهم نشاط الزوايا الذي يتجاوز الانقسامات القبلية والذي أخذ في التعاضد بظهور طوائف صوفية جديدة وانفصال دولة بني وطاس عن الخلافة العباسية منذ اعتناق المغاربة للإسلام<sup>3</sup>.

لقد استفاد السعديون من التجارة الأجنبية الإنجليزية ثم الهولندية وهذا كان سر في نجاحهم ضد الوطاسيين إذ عملوا على القضاء عليهم وتوحيد البلاد في إطار الولاء التام للأشراف المتمثلين في الأسرة الحاكمة، لكن رغم كل هذا إلا أن هؤلاء الأشراف السعديين لم يظلوا أوفياء لروح الجهاد بل أصبحوا يعقدون مهادنة مع بعض الدول الأجنبية بعدما كانوا متحالفين مع الزوايا، وهذا كان سبب في تعرضهم لمقاومة عنيفة<sup>4</sup>. حيث تكبد الجيش السعدي هزائم كبرى أمام هذه المقاومات وخاصة سنة (958هـ/1551م) التي كانت ناتجة عن ضعف القيادة وعدم امتلاك الخبرة في استعمال المدفعية حيث أضاع محمد الشيخ تركته لذلك قرر الأتراك مساعدة أبي الحسون<sup>5</sup> الوطاسي وذلك بإرسال جيشا قويا معه وهنا هزم محمد الشيخ أما هذا الجيش. بينما أبو

<sup>1</sup> - عبد الله العروي، المرجع السابق، ص 456.

<sup>2</sup> - إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 176.

<sup>3</sup> - عز الدين أبو الحسن ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج3، بيروت: دار المصادر للطباعة والنشر، 1965، ص ص 08-12.

<sup>4</sup> - عبد الله العروي، المرجع السابق، ص 458.

<sup>5</sup> - أبو الحسون: هو أبو الحسن علي بن محمد بن أبي العباس أحمد بن موسى السملالي المعروف أبي دميعة من الذين اغتتموا ضعف الدولة السعدية للدعوى لأنفسهم ببيع بفاس سنة إثنين وثلاثين وتسعمائة هجرية 1525م. قامت بين أبو الحسون وزاوية الدلاء ومولاي الشريف أحلاف وحروب سجن فيها أبو حسون مولاي الشريف وذلك سنة 1046هـ/1638م ثم ثار أهل سجلماسة على أبي حسون وبايعوا مولاي محمد سنة 1050هـ/1638م. ينظر: ثريا برادة، المرجع السابق، ص 31. محمد بن محمد بن مصطفى المشرقي، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعدّ بعض مفاخرها غير المنتهية، درا وتح: إدريس بوهليلة، ج2، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط1، 2005، ص 259.

الحسون فإنه قد دخل فاس وحاول التخلص من الأتراك حتى يكسب عطف الرعية، أما محمد الشيخ فإنه مال إلى أبي الحسون وإستولى على فاس واضعا حدا نهائيا لطموحات الوطاسيين<sup>1</sup>.

5. مسايرة الوطاسيين ولو على حساب الدولة حيث كان هؤلاء يتركون الناس يتصرفون بحرية وخاصة المتمردين فإن الوطاسيين لم يكونوا يستخدمون الصرامة ضدهم<sup>2</sup>.

6. لم يكن الوطاسيون يستخدمون الحداثة لتطوير التخطيط العسكرية والأسلحة وهذا يعود إلى أن مصانعهم الحربية التي تلبى حاجة البلاد<sup>3</sup>، إضافة إلى شيخوخة جيش الدولة وعدم قدرته في الدفاع عن نفسه وأن هذا الجيش لم يكن منظم كما أنه كان يفتقر إلى العدة والعتاد كل هذه الأمور أدت إلى شيخوخة الجيش التي كانت قاتلة والتي أدت إلى نهاية الدولة الوطاسية ليبدأ المغرب الأقصى عهدا جديدا وهذا بقيام دولة الأشراف السعديين<sup>4</sup> ومنه يمكن القول أن الوطاسيين لم يستطيعوا تحقيق أي نتائج عسكرية سواء على المستوى الداخلي أو الخارجي خاصة وانهم لا يتوفرون على سند ديني أو مذهبي يشد أزرهم<sup>5</sup>.

7. لم تكن نهاية الدولة في بلاد المغرب بصفة عامة والمغرب الأقصى بصفة خاصة تعود لأسباب شخصية فقط. ولها أهميتها بل ذلك تعود لأسباب إستراتيجية إضافية إلى تنوع الخصومات القبلية منها والدولية، وكذلك الخصوم بين الاسلام والنصرانية كل هذه الأسباب والعوامل أدت إلى انتهاك الدول رغم ما كانت تعرفه أو تشده من قوة وصمود على الإنتصار<sup>6</sup>، فمن بين هذه الأسباب التي كان لها تأثير كبير على نهاية الدولة نذكر الأسباب الشخصية والمتمثلة في:

- ثورات الأبناء على الآباء والأعمام وأفراد العائلة وهذا من أجل إنتزاع السلطة بالفعل ثم تنصيب بعض السلاطين أو الأمراء إذا كان كل واحد منهم يريد الاطاحة بأخيه حتى يبقى المنصب من

<sup>1</sup> - عبد الله العروي، المرجع السابق، 463.

<sup>2</sup> - إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 176.

<sup>3</sup> - نفسه، ص 176.

<sup>4</sup> - عبد الله العروي، المرجع السابق، ص 281.

<sup>5</sup> - ثريا برادة، المرجع السابق، ص 36.

<sup>6</sup> - عبد الكريم غلاب، المرجع السابق، ص 280.

نصيبه، لكن تبقى الضحية الأساسية في صاحب العرش الذي كان في استعداد للدفاع عن نفسه أو دولته في مثل هذه الأوضاع<sup>1</sup>، ونذكر على سبيل ذلك:

- بعد وفاة عبد الحق سنة (869هـ/1464م) إنتقل الحكم إلى أبي محمد بن عبد الله الإدريسي الذي حكم البلاد بمساعدة ابنه له كوزير. حيث قام أبو الحجاج يوسف بن منصور بن زيان الوطاسي بتنحية الشريف أبي عبد الله عن الإمارة بعد مدة ثلاث سنوات أثناء حكم العلويين مع أن فترة المنصور الوطاسي لم تدم سوى سنة إذا أعلن الشيخ محمد بن أبي زكرياء نفسه سلطاناً على المغرب في عام 876هـ/1472م كمؤسس للأسرة الوطاسية بعد سيطره على الحكم وأصبح العرش من نصيبه، حيث كان الشيخ محمد الوطاسي حاكماً على أصيلا، والذي تميز بالشجاعة لذا رأى في نفسه أحقيت الإستلاء على العرش وإنتزع الشريف أبي عبد الله ف وقعت معركة طاحنة قرب مكناسة<sup>2</sup>. بين محمد الشريف ومحمد الشيخ وسميت بمعركة درنة، وهنا اضطر الشيخ الوطاسي إلى العودة إلى أصيلا، إلا أنه لم يستسلم وجدد الكرة للمرة الثانية وبدأ يجمع جيوش كثيرة واتجه به نحو عاصمة فاس وحاصرها لمدة عامين كاملين لكنه فوجأ بوصول البرتغاليين وإستلائهم على أصيلا<sup>3</sup>.

- بمجرد سماع الشيخ الوطاسي بخبر إستلاء البرتغاليين على أهله قرر الرجوع إلى أصيلا وترك فاس، لكن هذا الأخير لم يستطع، لهذا إلتجأ إلى عقد هدنة مع البرتغاليين ثم عاد إلى فاس وحاصر محمد الشريف ففر الشيخ الوطاسي وسلمها لمحمد الشيخ فدخل فاس وتفرغ لقتال القبائل، فخضع له الجميع ومارس مسؤوليات هذا الأمير، ما رواه السلاوي بقوله (أن من نزع الشريف في فاس يكون أبو الحجاج يوسف بن منصور بن زيان الوطاسي)، لكن إذا كان الوطاسيون نجحوا في

<sup>1</sup> - عبد الكريم غلاب، المرجع نفسه، ص 281.

<sup>2</sup> - مكناسة: هي مدينة في المغرب متصلة بالمدن الأخرى والحصون، تعد هذه المدينة جليلة وفيها السواق الحفيلة وأنشأ فيها ملوك بني عبد المؤمن بحار عظيمة وغرست فيها أشجار كثيرة من الزيتون والكروم لهذا تميزت بكثرة زيتها. كما تميزت هذه المدينة بأرضها الكريمة، وبكثرة سكانها وقراها وعمائرهما المتصلة بينها وبين مدينة فاس حوالي أربعين ميلا في جهة المغرب وسمية لمكناس البربري لتزول هؤلاء بها. ينظر: محمد بن عبد المنعم الحميري، المرجع السابق، ص 545.

<sup>3</sup> - عبد الفتاح مقلد الغنيمي، المرجع السابق، ص 12.

السيطرة على دولة الأشراف بقيادة الوريكلي وتعين عبد الله الشريف الجوطي إماماً لفاس والقضاء على كيان الأشراف<sup>1</sup>.

لقد رفض كل من بني راشد وأبي الحسن المنظري الهدنة التي عقدها محمد الشيخ مع العدو والأجنبي البرتغالي في عهد الفونسو الخامس والتي كانت سبباً في تمزق الوحدة السياسية المغربية وأثرها عليها بشكل خطير، لذا ظل بنو راشد وأبي الحسن المنظري يعملون على مذايقة الجيش البرتغالي في مدينة أصيلا، وكانت النتيجة هي تحطيم عدد كبير من سفنهم بحوضها وبعدها حدوث الانفصال عن الحكومة المركزية لبعض القبائل وخاصة بنو راشد وبنو هنتانة الذين ظلوا مستقلين عن الحكومة المركزية بمدينة مراكش واستمر هذا الانفصال حتى في عهد بني وطاس<sup>2</sup>.

اضطر محمد الشيخ بعد قيام دولة بني مرين بدبدوا وبتأسيس القصة الكبيرة إلى محاولة عقد هدنة مفادها كسب هؤلاء القبائل فقام بتزويج بنتين له مع أحد أبناء تلك القبائل وذلك من أجل اخضاعهم والتأثير عليهم لكن هذه الخطة باءت بالفشل، كان زعيم هؤلاء القبائل يدلى محمد بن أحمد المريني الورتاجني حيث كانت هناك بعض المدن شبه مستقلة عن الجمهورية المغربية وخاضعة مدة طويلة للبرتغال مثل: مدينة أنفا التي كانت تتميز بنوع من الاستقلالية.

أمّا الجنوب فقد تميز بحدوث العديد من الثورات منها ثورة محمد بن سليمان الجزولي وذلك سنة (870هـ/1465م) حيث استمرت هذه الثورة حوالي عشرين سنة قتل فيها هذا الشخص سنة (890هـ/1485م) على يد زوجته أو ابنته لكن محمد الشيخ لم يظهر أي تدخل له في الجنوب رغم خطورة إنتفاضة<sup>3</sup>.

8. الدولة الوطاسية كانت تعتمد على قوتها ونفوذها رغم أن هذا النفوذ لم يتعدى حدود القسم الشمالي، لكن عندما أحست هذه الدولة بالضعف وأصبحت عاجزة عن التصدي لقوات العدو، وحماية

<sup>1</sup> - عبد الفتاح مقلد الغنيمي، المرجع نفسه، ص 22.

<sup>2</sup> - إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 169.

<sup>3</sup> - نفسه، ص 170.

أراضيها إلتجأت إلى يد العون الخارجية لمساعدتها على محتتها التي أصبحت عليها وهذا في المرحلة الأخيرة من الدولة الوطاسية<sup>1</sup>.

9. كانت الدولة الوطاسية تعاني من أزمة إقتصادية خانقة وذلك نتيجة لاحتلال العدو الأجنبي وخاصة البرتغالي لمعظم موانئها وهذا ما أدى إلى تدهور تراجع الحركة التجارية في المغرب الأقصى وخاصة في عهد بنو وطاس إذ تعتبر هذه الأزمة كسبب مباشر في ضعف هذه الدولة وتراجعها وإضمحلالها<sup>2</sup>.

حدوث حروب وفتن بين السعديين والوطاسيين خاصة في عهد السلطان محمد بن محمد الوطاسي حيث نشهد هذا العهد مقاومة شديدة للبرتغاليين من جهة والسعديين الوافدين من الجنوب المنافسين لخصومهم الوطاسيين من جهة أخرى وانعكس ذلك على عدة حروب بين سلطة الوطاسيين وسلطة السعديين كان الإنتصار فيها للسعديين<sup>3</sup>.

بينما عهد أبي العباس أحمد الوطاسي الذي تولى زمام الحكم من سنة (932هـ/1525م)، فقد شهد موقعة عرفت ببوعقبة التي كانت بواد العبيد، والتي خرج فيها الوطاسيين منهزمين وهنا إضطّر سلطانهم إلى الإنسحاب إلى مدينة فاس بعدما وجد نفسه ملزما على توقيع معاهدة صلح يعترف فيها بالإمتداد الجغرافي لدولة السعديين من تادلا في المغرب الأوسط، فكل هذه الأحداث كانت سببا في إضعاف الحكم الوطاسي ونهايته<sup>4</sup>.

رغم إعتمااد الدولة الوطاسية على قوتها ونفوذها الذي كان محورا في حدود الجهة الشمالية من المغرب الأقصى، إلا أن شأنها كشأن كافة الدول الأخرى تأثرت كثيرا بسقوط غرناطة، وهذا بعد إستلاء العدو عليها حيث كان السبب في ذلك هو الخلاف والفتنة التي كانت منتشرة بين الأخوين يوسف وابن السلطان محمد الغني بالله وأخوه أبو عبد الله محمد بن سعد المدعو بالزغل، الذي كان قدومه من بلاد النصارى وهما من دولة

<sup>1</sup> - إبراهيم حركات، المرجع نفسه، ص 176.

<sup>2</sup> - علي محمد محمد الصلاحي، صفحات مشرقة من التاريخ الاسلامي، ج2، الاسكندرية: دار الايمان للطباعة والنشر والتوزيع، ص 731.

<sup>3</sup> - عطا علي محمد شحاته ريه، اليهود في بلاد المغرب الأقصى في عهد المرينيين والوطاسيين - سورية - دمشق: دار الشفيق للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1999، ص 40.

<sup>4</sup> - المرجع نفسه، ص 40.



بني الأحمر، وقد اشتدت المنافسة والفتن بين هاذين الأخوين وتكالب العدو عليهم من أجل تفريق كلمتهم وكلمة المسلمين كافة، وهذا بزرع الفتن بينهما وكذلك تحريض أحدهما عن الآخر كتحرريض العم ضد ابن أخيه أو العكس وكل هذا كان بسبب سقوط غرناطة سنة 1492م وضعف العديد من الدول منها الدولة الوطاسية.<sup>1</sup>

إضافة إلى ذلك سقوط دولة الأندلس التي كان سقوطها نتيجة للخلافات والفتن السابقة والتي دفعت العدو وفتحت أمامه الطريق لغزو بلاد الأندلس التي انتهى أمرها بعد وصول العدو إلى القسطنطينية العظمى ثم إلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام، وبإنهاء أمر الأندلس سوف ينتهي الإسلام وتعود النصرانية إلى تلك البلاد.<sup>2</sup>

### ب. النتائج:

لقد تنوعت واختلفت نتائج ضعف الدولة الوطاسية التي يعتبر عهدها فترة من فترات تغير الأحوال في تاريخ المغرب. وهذا بنزول المحتل الأجنبي إلى أرض البلاد المغربية وخاصة في عهد الدولة الوطاسية التي كانت قد شهدت عدة نتائج سلبية ناتجة عن ضعفها منها:

تدهور الإمبراطورية المغربية وفقدان قوتها العسكرية بسبب كثرة الصراعات والتراعات بين الأخوة والآباء، كما سقطت العديد من الدول التي كانت في مواجهة مع هذه الإمبراطورية وفي المقابل تعاظم قوة الدول الأوربية وتطورها بحريا وبريا وخاصة كإسبانيا التي سيطرت على البحار عن طريق القرصنة الخطيرة التي طبقها المغامرون على شواطئ الجزائر وتونس، وكذلك القرصنة على المياه الإقليمية لتلك البلاد إضافة إلى البرتغاليين الذين كانوا يتمتعون بقوة بحرية وصناعية وتجارية هائلة كل هذا شجعهم على البحث عن أسواق أخرى، والبحث كذلك عن المواد الخام التي طور الصناعات وتنوعتها فكان أول ما قاموا به هو الإستلاء على بعض المدن كطنجة.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> - أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، المرجع السابق، ص 173.

<sup>2</sup> - المرجع نفسه، ص 174.

<sup>3</sup> - عبد الكريم غلاب، المرجع السابق، ص 274.

سميت هذه التطورات التي عرفتها القارة الأوربية في جميع المجالات السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية والثقافية بعصر النهضة كتطور السلاح مثلاً والنقل البحري والعسكري، وهذا كان خلال القارة الأمريكية وتوحيد المملكتان العظمتان إسبانيا والبرتغال على حساب الدول المغربية<sup>1</sup>.

عجز الوطاسيين على توحيد البلاد وخاصة من الناحية السياسية وهذا راجع لضعف السلطة المركزية بفاس في الحفاظ على الأمن والدفاع عن البلاد إذ كان المغرب مجزأ خلال فترة حكم الوطاسيين إلى وحدات بيانية صغيرة تحكمها زعمات قبلية أو دينية أو مجالس محلية تكون مستقلة تماماً عن السلطة الوطاسية وهذا ما أدى إلى انعدام الوئام بين مختلف الوحدات السياسية وخاصة التجارة منها، وهذا ما أدى إلى كثرة الحروب والنزاعات بين مختلف الأطراف من أجل التوسع في الحكم، الذي كان همهم الوحيد حيث كان هؤلاء الوطاسيين يسرفون كل أموالهم لشراء السلاح والانفاق على الجيش وهذا ما أدى إلى توقف النشاط العمراني كتناقص عدد المستشفيات والفنادق وعدم الاهتمام بالمرضى<sup>2</sup>.

في انتشار الجهل والأمية في كل بلاد المغرب حيث أصبحت العقول تؤمن بما يقوله المشعوذون من حين إلى آخر، كما انتشرت الخرافات التي تجلّى دورها الخطير في إفساد الأذهان وتخطيط العزائم والقضاء عليها، وهنا أصبح الناس ضعفاء، وعاجزين عن الدفاع عن أنفسهم أمام هذه الأوضاع وهنا أصبح محيرين تحت حتمية الاستسلام وهنا أصبح الناس عبارة عن مقلدين لبعض الشخصيات البارزة كسلطينهم الذين اتخذوا من المشعوذين أولياء حيث كانوا ينفذون أوامرهم في كل ما يؤمرون هؤلاء المثقفون<sup>3</sup>.

كما ترتب عن ضعف الدولة الوطاسية وسقوطها ظهور مجموعة من التغيرات التي مسّت القطر المغربي منها ظهور بعض الإمارات في الجنوب والشرق كإمارة هنتانة في مراكش، وقد إمتد نفوذ هذه الإمارة حتّى الجزء الجنوبي من بلاد المغرب، وهذه الإمارات كانت في منافسة شديدة مع الوطاسيين في الشمال، حيث

<sup>1</sup> - عبد الكريم غلاب، المرجع نفسه، 274.

<sup>2</sup> - أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، ج4، ص ص 155 - 165.

<sup>3</sup> - إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 180.

كانت تلك الإمارات تعترف بالولاء للحكام الوطاسيين الذين إستقروا بمدينة فاس، وقد كانت تشاركهم في ذلك معظم الوحدات السياسية التي ظهرت ببلاد المغرب الأقصى خلال مرحلة الإضطرابات<sup>1</sup>.

تصاعد موجة الغزو البرتغالي وتوسعه في كامل التراب المغربي وذلك بعد أن إنتهى أمر الدولة الوطاسية والتي كان سقوطها على يد الأشراف السعديين، وكذا محاولة الوجود التركي العثماني التصدي لهذا التوسع البرتغالي والسيطرة على المغرب وكان هذا في عهد محمد الشيخ الوطاسي في جو تسوده الصراعات الدامية على أرض المغرب، حيث كان هذا الأمير الوطاسي أن يدخل في طاعة الخلافة الحفصية والدعاء لخلفاءها حتى يكسب شرعية لحكمه، رغم الحالة التي كانت عليها تلك الدولة<sup>2</sup>.

بروز مجموعة من الأحداث السياسية والإجتماعية والعسكرية التي شهدتها المغرب الأقصى، بعد فترة نهاية بني وطاس، التي لم تشهدها البلاد من قبل، حيث شهدت على مستوى الصعيد الداخلي تحرشا سياسيا خطيرا وهو زيادة سيطرة القوى الخارجية البرتغالية والإسبانية وذلك بإحتلالها لجميع الموانئ والمدن الساحلية، على مستوى ساحل البحر الأبيض المتوسط والساحل المغربي المطل على المحيط الأطلسي وهنا فقد المغرب جميع مدنه وموانئه ما عدا مناء سلا، رباط الفتح كما تجاوزت سيطرت العدو الإيبيري تدخل في مداخل البلاد ومخارجها<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - محمد زروق، دراسات في تاريخ المغرب، الدار البيضاء، ط1، 1991، ص 151.

<sup>2</sup> - نفسه، ص 153.

<sup>3</sup> - عبد الفتاح مقلد الغنيمي، المرجع السابق، ص 103.

## المبحث الثاني: بداية الحكم السعدي في المغرب الأقصى.

الدولة السعدية أو دولة الأشراف السعديين قبل أنهم لم يكن لهم هذا الوصف موجودا في القديم ولا وقعت في تحليلتهم في ضمائرهم وسجلاتهم وصخورهم ورسائلهم، بل كانوا يقبلون ذلك ولا يتجرأ أحد على مواجهتهم وأنهم بني سعد بن بكر بن هوزان، أمّا الكثير من العامة فقالوا أنهم سموا بهذا الاسم كون الناس سعدو بهم ونحو ذلك<sup>1</sup>، كما أشارت معظم الروايات التاريخية بأن السعديين كانوا يقولون إن أصل سلفهم من ينبع التي هي واد نخل وذلك منذ فترة بعيدة ترجع إلى ما قبل القرن السابع هجري، الثالث عشر ميلادي (707هـ/13م) المفتي الاختياري لأشراف مكة المكرمة، بحيث يقصدها الشريف المنهزم أمّا ليموت هناك أو لتجميع أتباعه وقوته والعودة مرة أخرى لاسترداد مكة المكرمة من خصومه، وذلك عن طريق مهاجمتهما مباشرة، أو عن طريق فرض الحصار وقطع طريق الحجيج<sup>2</sup>، كما قيل إنهم ينتسبون إلى السلالة النبوية حيث ينتسبون إلى الأشراف الحسينيين وهذا ما يتجسد من خلال تحلية سلاطينهم في الكتابات المنقوشة على مسكوكاتهم وعلى بعض عمائرهم القائمة وعلى الشواهد والتراكيب الخاصة بهم وبألقاب مثل بسط حاتم الرسل والشريف الحسيني، وغيرها والاستشهاد على معظم هذه الآثار بهذه الآية الكريمة: "إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا"<sup>3</sup>.

لقد دامت فترة حكم الأشراف السعديين للمغرب الأقصى مدة زمنية تزيد عن قرن ونصف من الزمان، والتي قام خلال فترة حكم ملوكها بتحرير بعض الثغور المحتلة من أيدي الإسبان والبرتغال، كما تمكنوا من القضاء على حكم الوطاسيين والزعامات الانفصالية والسياسية في البلاد، وقد استغرقت هذه الأهداف المراحل الأولى من تاريخ دولة الأشراف السعديين أو ما يعرف بالدولة التكمادرتية، أو الدولة الزدانية أو الدولة السعدية والتي تعتبر مرحلة تمهيدية والتي امتدت من سنة (915هـ/1510م) إلى سنة (964هـ/1556م).

<sup>1</sup> - أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاسقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، (الدولة السعدية)، تح: جعفر الناصري، ج5، دار الكتاب، 1997، ص 6.

<sup>2</sup> - عواطف بنت محمد يوسف نواب، كتب الرحالة في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين درا وتح: مقارنة، الرياض: دار الملك عبد العزيز، 2008، ص 436.

<sup>3</sup> - سورة الأحزاب، الآية 33.

وعاقبت هذه الفترة النزاع القائم بين المتوكل وعمّه عبد الملك وأحمد على العرش عاشت خلال هذه الدولة الفتن والاضطراب إلى أن كاد السلم والأمن والاستقرار وكان ذلك في معركة وادي المخازن<sup>1</sup>.

لقد تعرضت سواحل المغرب الأقصى كما سبقت الإشارة في الفصل الأول إلى الاحتلال الأيسري المتمثل في الإسبان والبرتغال بفضل عوامل، الاحتلال البرتغالي مرّ بمرحلتين الأولى كانت في القرن التاسع هجري، الخامس عشر ميلادي، مركزه على الثغور الشمالية للمغرب أمّا بالنسبة للمرحلة الثانية فكانت في مطلع القرن العاشر هجري، السادس عشر ميلادي، مركزة على إحتلال الثغور الجنوبية المرحلة الأولى بدأت باحتلال مدينة سبتة وذلك عام (717هـ/1415م) والقصر الصغير<sup>2</sup>، ثم توظفوا في غزو الشواطئ المغربية إلى بداية القرن العاشر هجري، السادس عشر ميلادي).

أمّا الإسبان فلم يحتلوا في القرن (التاسع هجري، الخامس عشر ميلادي) سوى منطقة ساحلية بأقصى الجنوب المغربي، وخاصة عندما أصبحت إسبانيا خاضعة لسلطة واحدة وذلك بعد زواج إيزيلا ملكة قشتالة مع فرديناند ملك أراغونة وذلك سنة (97هـ/1492م) حيث تمكنوا من تحطيم غرناطة التي تعتبر آخر حصن عربي إسلامي بالأندلس والتي إعتبرت في البداية بأنها الشواطئ الشرقي لبلاد الهند وكان هذا أكبر إنتصار حققه الإسبان على خصومهم البرتغاليون وقد إستغل الإسبان هذه الأحداث وإنتزعوا من البرتغاليين وذلك وباعترافهم حسب معاهدة (Tordesillas) يوم السابع من يونيو لسنة 1494م بأحقية الاحتلال الإسباني في الجزء الشرقي من ساحل المغرب الشمالي<sup>3</sup>، ثم بدأت المرحلة الثانية مع مطلع القرن (العشر هجري، السادس عشر ميلادي)، من احتلال البرتغاليين للسواحل المغربية بدأ من إحتلال أكوز والصويرة<sup>4</sup> فأحدث هذا الاحتلال ردود أفعال مختلفة داخل البلاد وبقيادة مختلفة محمد بن عبد الرحمان القائم بأمر الله (915-923هـ/

<sup>1</sup> - محمد السيد محمد أبو رحاب، المرجع السابق، ص 56.

<sup>2</sup> - القصر الصغير الذي يسمى أيضا قصر المجاز وقصر مصدودة، ويوصف هذا القصر بالصغير تميز له عن القصر الكبير المسمى أيضا بقصر عبد الكريم أو قصر كتامة لوقوعه في وسط البلاد هذه القبيلة، مدينة قديمة تقع في الحركة سهل فنيح على ضفاف وادي البكوس، ص 228. ينظر: محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج2، الرباط: منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ص 578.

<sup>3</sup> - عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 10.

<sup>4</sup> - أبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي عرف بإبن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبيتي، تح: أحمد التوفيق، الرباط: منشورات كلية الآداب، ط2، 1997، ص 355.

1510-1517م) عندما تمت مبايعة محمد بن عبد الرحمان من طرف العلماء والصلحاء نظرا لما إشتهر به من سعة العلم والدين وأعمال الجهاد ومحاربة العدو قبل هذه المسؤولية التي أوكلت إليه لكن بشرط على كل قبيلة من القبائل التي تمت مبايعته أن تقوم بتقديم عشرة أشخاص من أبنائها مجهزين بكامل الأسلحة والعتاد، وعندما توجه إلى درعة ليعود بأهله إلى المكان الجديد وما عاد إلى سوس حتى وجد عدد كبير من القوات المسلحة كما إشتراط، والتي كانت خمسمائة رجل وكذا بسلاحهم وخيلهم<sup>1</sup>، ولتوسيع هذه العملية استحدثت وطور وسائل أخرى كوضع الوظيف المسمى في لسان العامة بالنائبة والتي تعتبر ضريبة نقدية مسماة بهذا الاسم وكان قدرها صحيفة من الشعير وعشرين مدا من القمح لكل نائبه، وصاعا السمن وكبشا لكل أربع نواب<sup>2</sup>، وكانت تفرض في زمن الشيخ على الكوانين<sup>3</sup>، وبذلك استطاع محمد القائم بأمر الله أن يضم أكبر عدد من المجاهدين حوله وإنفاق متطلبات الجهاد ضد الغزات المحتلين بإقليم سوس، فقد قاد تيدسي حملة مجهزة بالعتاد والعدة حملة ضد البرتغاليين شاطئ أكادير التي إستولت وقضت على حصن فونتي (Fonti) الذي شيد على يد البرتغالي خاولوبيز (Joalopez) سنة (911هـ/1505م) والمعروف أيضا بسانتا كروز (Santa Cruz) أي الصليب المقدس<sup>4</sup>، زنظرا لما حققه محمد بن عبد الرحمان من إنتصارات طلب من القبائل مبايعة أكبر ولديه أحمد الأعرج لولاية العهد، وكان ذلك بتيدسي سنة (918هـ/1513م)، كما إنظمت إليه حاجة والشياطمة طالين منه أن ينتقل إليهم هو وولده ولي العهد<sup>5</sup>.

أبو العباس أحمد الأعرج (923هـ-946هـ/1517م-1540م)

إبن الأمير ابي عبد الرحمان الله القائم رحمه الله، بعد وفاة والد السلطان أحمد الأعرج تولى القيادة إلى إبنه هذا الأخير عطل على إعادة إصلاح البلاد والعباد وقام بشن العديد من الغارات على العدو في ذلك يقول

<sup>1</sup> - عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 39.

<sup>2</sup> - أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، المرجع السابق، ص 32.

<sup>3</sup> - الكانون أو الكانونة، جمع كوانين وحدة جبائية تطلق على مجموعة من الأشخاص الساكنين في محل واحد أي وحدة عائلة (أسرة) توزع عليها المهام داخل القبيلة وعلى أساسها توزيع أيضا مختلف التكاليف والضرائب يتراوح عدد الأشخاص في الكانون الواحد ما بين خمسة إلى ستة أشخاص. ينظر: محمد السيد محمد أبو رحاب المرجع السابق، ص 65.

<sup>4</sup> - نفسه، ص 65.

<sup>5</sup> - أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، المرجع السابق، ص 14.

البقاع مخلوف بن صالح في مدحه فلله هذا الهاشمي وفضله فلولا صار الكفر أعظم صولة<sup>1</sup>، لكن كان الأثر واضح لما خلفه أبو العباس أحمد الأعرج لما قام به أعمال جليلة فمن نيابة في تسيير شؤون البلاد وخاصة تلك الحملات التي قادها مع والده ضد البرتغال، وهذا ما جعل الكثير من الجيوش تلتف حوله مقدمة له يد العون بمختلف المساعدات، والهبات السخية، فقد إستمد عهد هذا المولى في القيام بالجهاد والقتال من أجل تحرير سواحل البلاد والسيطرة على النفوذ في كل ربوع البلاد ولتثبيت هذه الغاية إعتد على سلسلة من الإجراءات كإعتماده على فرقة الفرسان الموضوعية رهن إشارته، كما عمل على تطوير موارده الاقتصادية بإعتبارها المورد الثابت والأساس لتثبيت وجوده، فقام باستغلال الموارد التجارية من أجل كسب المال وسدّ الحاجات وشراء الأسلحة، وقد باشر في سياسة التعامل مع التجار الأجانب، حيث أبرم مجموعة من التجار الفشتالين إتفاقاً حول إحتكار سكر سوس<sup>2</sup>، مقابل مبلغ من المال الذي يساعده على رفع وتسرب الجانب المالي للمولى أحمد الأعرج بسيطرته على مدينتين كبيرتين هامتين بلاد السوس هما إتارودانت سنة (910هـ/1515م)<sup>3</sup>، وماسة<sup>4</sup>.

ولتحقيق هذه الغاية إلتهجاً كذلك إلى معاقبة ومنع أي متعامل تكون له علاقة وبأي طريقة مع مراكز الاحتلال البرتغالي، ومقاتلة كل من يعمل على الخروج على هذه القوانين، رغم أن علاقته عرفت تحسن وكانت جيدة وحسنة مع الغير البرتغاليين، كما قام باحتلال (تافتنا) المشرفة على طرق المواصلات مع حصن سانتكروز خلال شهر سبتمبر 1514م، وهذا ما أثر على البرتغاليين وحالتهم، ممّا جعل حاكمها (Aflonso Rodrigues) يتخذ تدابير واحتياطاته بالعمل على تحصين القلعة بكل الوسائل والامكانيات، والعمل على إلقاء الضربة النهائية والقاطعة حسب هذه السياسة، كما قام باحتلال تاركوكو الواقعة في الشمال الشرقي لحصن سانتاكرو، كما اتخذ من أزرو التي لا تبعد على ثلاث أميال عن هذا الحصن، مقر لقواته التجارية

<sup>1</sup> - أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، المرجع نفسه، ص 15.

<sup>2</sup> - عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 45.

<sup>3</sup> - الحسن بن محمد الوزان الفاسي، المرجع السابق، ص 118.

<sup>4</sup> - ماسة: إسم مدينة عتيقة إندثرت اليوم كانت تقع جنوب أكادير من إقليم سوس ولم يبقى يذكرها إلى النهر المسمى باسمها والمنحدر إليها من الجبال الواقعة إلى الجنوب وإلى الشرق منها وعلى مصب هذا النهر بالحيط الأطلسي يوجد رباط فيه مدينة ماسة. ينظر: محمد السيد محمد أبو رحاب، المرجع السابق، ص 67.

المحاربة<sup>1</sup>، وهكذا اشتد الحصار على البرتغاليين في حصن سنتاكروز التي اعتبرت أهم قاعدة في ساحل سوس، فلقد حاول الحاكم البرتغالي عدة مرات فك هذا الحصار فهو (Don Fransisco de Gastro) بالعمل على فك هذا الحصار بإرسال حملة ضد قوة المولى أحمد يوم الخامس عشر من شهر ماي لسنة 1518م، في أزرو ولكنها باءت بالفشل فاضطر إلى طلب النجدة من حكومته في لشبونة لأول مرة في تاريخ الإحتلال البرتغالي بسواحل بلاد السوس<sup>2</sup>.

كما استطاع أن يشن عدة غارات على مدينة أسفي التي وجد بها رجل اسمه يحيى بن تافوت (تعافت)، حليف البرتغاليين الذي قتله، مهزما الجيش البرتغالي الذي رجع إلى أسفي متحصنا بالأسوار سنة (927هـ/1521م)<sup>3</sup>، حتى فتحها سنة (933هـ/1526م)، والذي بسط نفوذه على بلاد عبدة ودكالة وطرف من تادلا تحت حماية البرتغاليين الذين كانوا يزودونه بالمال والعتاد، وأصبحوا من ورائه يمهدون داخل البلاد حتى وصل فرسانهم إلى أسوار مراكش، بعد أن كان الإحتلال المسيحي لا يتجاوز سيف البحر<sup>4</sup>، فقد نتج عن هذا الانتصار عدة نتائج على الجانبين البرتغالي والمغربي، فبالنسبة للبرتغاليين التخلي عن سياسة التوسع وتعويضها بسياسة الجلاء لبعض الموانئ التي يصعب الإحتفاظ بها، أمّا الجانب المغربي فقد بدأ المراكشيون بقيادة أميرهم الناصر بوشتوف الهنتاتي إلى بالدخول في طاعة المنتصر، وذلك عام (930هـ/1522م)<sup>5</sup>، مع إنتقال أحمد الأعرج إلى مدينة مراكش وإتخاذها مقر رئيسيا له هنا بدأت بذور الدولة السعدية تأخذ مجرى مغاير بدأت بالإسقرار والتمكن، فأخذ أحمد الأعرج يعمل على التفكير في تحقيق أهدافه وخاصة هدفه الأسمى وهو توحيد المغرب الأقصى تحت كلمة واحدة وتحت راية الأشراف السعديين، مما جعله يصطدم مع السلطة الوطاسية بفاس، التي كانت تربط السلطة الوطاسية وإمارة السعديين الناشئة وكانت العلاقات في بداية الأمر آنذاك علاقات حسنة وطيبة لأن الهدف كان مشترك وواحد وهو التعاون من أجل مناهضة المسيحيين المحتلين وخاصة في المناطق النائية عن فاس والتي لا يمكن أن تصل إليها كتائب الجهاد الوطاسية<sup>6</sup>، فالوطاسيون كانوا

<sup>1</sup> - عبد الكريم كريمة، المرجع السابق، ص 47.

<sup>2</sup> - نفسه، ص 48.

<sup>3</sup> - نفسه، ص 50.

<sup>4</sup> - الحسن بن محمد الوزان الفاسي، المرجع السابق، ص ص 8-9.

<sup>5</sup> - أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، المرجع السابق، ص 10.

<sup>6</sup> - الحسن بن محمد الوزان الفاسي، المرجع السابق، ص 8.



يمدون الأشراف السعديين بالمال والعتاد الحربي اللازم لعملية الجهاد<sup>1</sup>، وعندما دخل أبو العباس الأعرج مدينة مراكش وإتخاذها مقرا له حتى شعر الوطاسيون بخطر الحركة السعدية عليهم فقامو بإعلان الحرب على الدرعيين ف وقعت الحرب بينهما في أنماي سنة (935هـ/1528م)، وبعد تدخل العلماء الصلحاء بينهم ثم الاتفاق على الاعتراف بالسيادة الوطاسية على الجزء الواقع فيها بين تادلا والمغرب الأوسط، أمّا السعديين على ما بين تادلا والسوس، لكن انتهت هذه الهدنة بجزمة الوطاسيين في معركة عند مشروع أبي عقبة بتادلا وذلك سنة (943هـ/1536م)<sup>2</sup>، إلا أن الوطاسيين لم يقبلو بهذا الوضع الراهن فجمعوا جيشا كثيفا محاصرين مدينة مراكش لكنهم لم يستطيعوا دخولها بسبب قوة ومقاومة الدولة السعدية وسكانها فتخلو عن حصارها<sup>3</sup>، لكن على الرغم مما بذله أحمد الأعرج من جهود فإنه لم يستطع توحيد المغرب تحت السلطة التكمادرتية، فقد ظل نجاحه محدودا بسبب صراع الوطاسين له، ولهذا السبب قد اتهمه أخوه الأصغر محمد الشيخ بالعجز الذي كان يتولى شؤون الدولة نيابة عن الأعرج وذلك بمنطقة سوس بعدم تحرير البلاد و بالعجز والقصور على توفير الأمن، سرعان ما تحول هذا الوضع الراهن إلى حرب ساخنة بينهما، فاغتنم محمد الشيخ بذلك مدينة مراكش معلنا عن خلع أخيه أحمد الأعرج سنة (946هـ/1539م)، فوضعه في السجن هو وعائلته، ليتم بنفسه المشوار العملي فضل بذلك أحمد الأعرج في السجن إلى أن أعتيل سنة (964هـ/1556م)<sup>4</sup>.

#### محمد المهدي الشيخ (946هـ-964هـ/1539م-1556م):

بالرغم من الدور العظيم الذي قام به كل من محمد القائم وأحمد الأعرج في قيام الدولة السعدية، سواء في سوس أو درعة وغيرها من الدول من خلال تنظيم البلاد من إدارة مركزية أو جيش ومن الموارد المنفقة عليها، وكذا إعلان الحرب ضد البرتغال إلا أنه يمكن القول بأن محمد المهدي هو المؤسس الحقيقي لدولة الأشراف السعديين.

لم يستقر محمد المهدي بمراكش بعد أن دخلها مباشرة سنة (946هـ/1539م) وظل بتارودانت التي اتخذها مقرا له منذ سنة (920هـ/1515م) فأصبحت العاصمة السعدية الثانية بعد تيدسي، ومنها تفرع إلى

<sup>1</sup> - أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، المرجع السابق، ص 11.

<sup>2</sup> - إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 246.

<sup>3</sup> - أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، المرجع السابق، ص 24.

<sup>4</sup> - محمد السيد محمد أبو رحاب، المرجع السابق، ص 69.

الجهاد ضد البرتغاليين الذين تمكنوا من استعادة حصن فونتي سنة (940هـ/1533م) وقد تمكن بالفعل من استرجاعه سنة (947هـ/1546م)<sup>1</sup>.

لقد أقام المولى محمد الشيخ ببلاد السوس ودافع عنها ضد العدو، إلا أن ابتعد عنها، فظل مدينة مراکش لم يبايعه كما رفضت الدول دعوته، هذا ما جعل أهلها يترددون عن اتخاذ موقف تبقى للوطاسيين الذي استمر إلى غاية (951هـ/1544م) وعندما انتقل إلى مراکش طمح في الاستلاء على بقية بلاد المغرب والعمل على قطع واسقاط جرثومة الوطاسيين<sup>2</sup>، وبدأت فتحاته تتوسع من الشمال فاستولى على مكناسة سنة (955هـ/1547م) وذلك بعدما حاصرها وقاتل من بداخلها ثم بعدها هاجم مدينة فاس التي دخلها سنة (956هـ/1549م) والتي حاصرها حصاراً طويلاً، وعندما صعب عليه الأمر بحث فليل له: لا سبيل لك إليها ولا يبايعك أهلها إلا إذا بايعك ابن الونشريسي بعنوان: الشيخ الفقيه أبا محمد عبد الواحد بن أحمد الونشريسي رحمه الله، فبعث إليه السلطان سرا ووعدته ومناه، فقال له الشيخ عبد الواحد: "بيعة هذا السلطان حيث رأى بعضهم أن أبا العباس الوطاسي كتب إلى أهل فاس يقول لهم: "أني دخلت فاساً صلحاً ملائماً عدلاً وإن دخلتها عنوة ملائماً قتلاً" فأجابه ابن الونشريسي بأبيات أغلط له فيها منها قول:

كَذَبْتَ وَبَيَّتَ اللَّهَ مَا تَحْسَنَ الْعَدْلَ لَا خِصْلًا الْمَوْلَى بِفَضْلٍ وَلَا أَوْلَى<sup>3</sup>

كذا في التزهة قلت: وهذا البيت من أبيات قديمة والونشريسي إنما تمثل به لا غير، فقد ذكر العلامة ابن خلدون في أخبار بني صالح بن منصور الحميري أصحاب قلعة نكور لأول فتح ان عبيد الله المهدي العبيدي صاحب إفريقية لما تغلب على المغرب خاطب سعديين صالح وكتب له.

فَإِنْ تُسْتَقِيمُوا أَسْتَقِمْ لِصَلَاحِكُمْ وَإِنْ تَعْدِلُوا عَنِّي أَرَى قَتْلَكُمْ عَدْلًا

وَأَعْلُوا بِسَفْيٍ قَاهِرٍ لِسُيُوفِكُمْ وَأَدْخِلْهَا عِنُونًا وَأَمْلَأْهَا قَتْلًا.

<sup>1</sup> - أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، المرجع السابق، ص 20.

<sup>2</sup> - نفسه، ص 21.

<sup>3</sup> - نفسه، ص 22.

فرد عليه بن الح في ابيات من نظم شاعره الطليطلي نصها:

كَذَبْتَ وَبَيَّتَ اللَّهُ مَا تَحَسَّنَ الْعَدْلَا      وَلَا عَلِمَ الرَّحْمَانُ مِنْ قَوْلِكَ الْفَصْلَا  
وَمَا أَنتَ دَالًّا جَاهِلًا وَمُنَافِقًا      تُمَثِّلُ لِلْجِهَادِ فِي السَّنَةِ الْمُثْلَى  
وَمُهِمَّتِنَا الْعُلْيَا بِدِينِ مُحَمَّدٍ      وَقَدْ جَعَلَ الرَّحْمَانُ هِمَّتَكَ السُّفْلَى<sup>1</sup>.

كان لإستلاء محمد الشيخ المهدي على مدينة فاس أثر كبير في ازدياد شهرته وهذا ما ساعده على وضع وتمثين أسس الدولة السعدية الناشئة، وقد تميزت هذه الفترة بكثرة الحكام والقبائل المدعّمين لهذه الدولة لعلّ أعراض قائد نواحي مليلة، ومحمد بن رشيد حاكم شفشاون الذي حاصر أصيلا وطنجة ومحاصيلها ثم حاكم تيطوان الحسن المنظري وقائد تازوطا ببلاد الريف الذي جمع الأشياخ العرب وجعلها وجعلهم يؤيدون السعديين والقائد العروسي حاكم القصر الكبير<sup>2</sup>.

كما قامت ثورة في بادس ضد أبي الحسون الوطاسي فأعلن أهلها طاعة المولى محمد الشيخ السعدي المهدي الذي تمكن من احتلال كوريسف وإمارة دبدو التي قرّ منها أميرها المربني مولاي عمر إلى مليلة، وفي الخارج ما يدل على شهرة الدولة السعدية الفتية هو الورس كوس الذين أصبح لهم أمل في محمد الشيخ في تخليصهم من إسبانيا. التي علمت بانتزاع محمد المهدي على فاس وكذلك البرتغال اللتان أخذتا في إرسال النجداث المستعجلة إلى قوات الاحتلال بالمغرب وهذا لترقب السعديين والأتراك ضد المراكز المسيحية سواء في شمال إفريقيا أو غرب المتوسط وهنا لوحظ تواطئ محمد الشيخ مع الأتراك لبناء أسطول بحري لتحرير جميع السواحل واستعادة الأندلس<sup>3</sup>.

بالرغم مما حققه محمد المهدي إلا أنه ما زال له أعداء ومنافسيه كأبي الحسون الوطاسي الذي إلّجأ إلى الأتراك الجزائر مركزا على تلمسان يرى فيها عاملا قويا لبطش نفوذه على كل ربوع المغرب أي نفوذ السعديين، بينما الأتراك فإنهم قد وجدوا في هذا التمركز تدعيما لوجودهم بالجزائر وغزو المغرب لأن الشواطئ

<sup>1</sup> - أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، المرجع نفسه، ص ص 22-23.

<sup>2</sup> - عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 70.

<sup>3</sup> - إبراهيم حركات، المرجع السابق، ص 71-72.

الشمالية المغربية كانت تمثل الطريق في تمهيد المواصلات البحرية الإسبانية والبرتغالية غير أن هذا كان له رد فعل عنيف من طرف الأتراك إذا أرسل حسن باشا قوات حربية بقيادة حسن كورسو لطرده السعديين من تلمسان وفي المقابل بعث محمد الشيخ نجيدات عسكرية لابنه لكن بعد حصاره حصار طويل قتل مولاي احمد الحران أعز أبناء المهدي<sup>1</sup>.

رغم ما قام محمد المهدي من وضع دعائم للدولة السعدية إلا أنه كتب لها بأن يواصل سلاطينها على كيانها وتطويرها مثلاً: أبو محمد عبد الله الغالب بالله (964هـ - 981هـ / 1556م - 1573م) بعد وفاة محمد المهدي ترك ولده عبد الله الغالب بمدينة فاس الذي اختلفت مرحلة حكمه عن حكم أبيه حيث اتسمت هذه المرحلة بالرفاهية والعافية وعكس ما كان في عهد والده الذي اتسمت مرحلته بالصراع السياسيين عمل عبد الله الغالب، بالتأثر لوالده حتى يضمن إستقرار الوضع الداخلي عن طريق إخضاع بعد الثورات التي أخذت تظهر بعض نواحي البلاد، فنوجه إلى مراكش ثم إلى تارودانت فحاصر الأتراك الذين دبوا مآمرة قتل والده حتى قضى عليه نهائياً، كما قضى على ثورة سوس بقيادة أخيه المولى عثمان خلال سنة 1558م، ثم عاد إلى فاس للتهيأة للقوات المحاربة لصد الجيش التركي بقيادة حاكمها حسن ابن خير الدين باشا<sup>2</sup>.

استغل الغالب بالله هذه الظروف المواتية وقام باحتلال مدينة تلمسان غير أنه لم يوقع أي إتفاق مع الإسبان بصفة رسمية، حيث أصبحت القوات الإسبانية بالفشل أمام مستغانم ونتج عنه خسائر كبيرة قتل خلالها الكونت الإسباني سنة 1558م، لكن رغم فشل هذه الأخيرة إلا أن العثمانيين تأكدوا من إتفاق المولى عبد الله الغالب بالله مع الإسبان وهذا ما جعلهم يأخذون بالحيلة والحذر عند محاولة قيامهم بمساعدة المتمردين ضد كبار السعديين. بينما أخو عبد الله الغالب وهو المولى عبد الله المؤمن فإنه لم يتلقى أي مساعدة عسكرية من طرف عندما ثار على مراكش بل رحب به في الجزائر وزوجه إحدى بناته ثم صبه على تلمسان وهكذا نقول على أن المولى الغالب قد اتبع سياسة والده الهادفة إلى مقاومة التوسع العثماني في المغرب<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - مارمول كرنجال، المرجع السابق، ص 322.

<sup>2</sup> - عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 86.

<sup>3</sup> - نفسه، ص 87.

وبعد نهاية الغالب بالله التي كانت عام 981هـ/1573م وقد دفن بمراكش جاء بعد المتوكل وخلفه على الحكم من سنة (981هـ - 983هـ / 1573م - 1575م) وهو ابن الغالب بالله دخلت هذه الشخصية المغرب في مرحلة حاسمة من تاريخه، حيث إزدادت رغبة العثمانيين في حكم بلاد المغرب وهذا بعد انتصارهم على الاسبان في تونس سنة 1573م.

بأن كنيته أبو عبد الله، ولقبه المتوكل على الله ويعرف عند العامة بالمسلوخ لأنه جلده وحش تبنا كما سيأتي. وقعت في أيامه معركة ما بين المسلمين وبين نصارى طنجة تسمى بابي خاصة قرب قنطرة عصماء، يوم الأربعاء منتصف جمادى الأولى سنة (982هـ/1574م)، وقد استشهد في هذه المعركة الشيخ أبو مهدي عيسى بن الحسن المصباحي، بينما أبي عبد الله المتوكل فإنه استمر عمله المنتظم فقدم عليه عمه عبد الملك ابن الشيخ الترك وذلك سنة (983هـ/1575م) من أجل تبديد ملك ابن أخيه<sup>1</sup>.

ونتيجة لهذه المحن والحروب الأهلية التي حدثت بين المتوكل وعمه أصبحت البلاد تعاني من مشاكل وأحوال مزرية من نفاذ الأسواق وانتشار الفتن كل هذه الأوضاع كانت عاملا في تشجيع القوى الخارجية لغزوها لبلاد المغرب<sup>2</sup>.

بعد وفاة المتوكل خلفه أخوه أبو مروان عبد الملك المعتصم الذي سيلقب فيها بعد بالمنصور الذي كان خليفة على مدينة فاس وشرع يتغير الوضع الاقتصادي والعسكرية السيئة التي وصل إليها المغرب والتي كانت نتاج للحروب الأهلية ما بين المتوكل والمعتصم إذا كان بإمكان المتوكل فرض ضرائب جديدة على الشعب، إلا أنه لجأ إلى وسائل بناءه كالجوئه للموارد البحرية التي اعتبرها أكبر مورد للحصول على المال إذ أمر بتطوير السفن البحرية في المقابل الاستلاء على سفن النصارى المحتلين لبعض الموانئ لذلك أصبحت لديه موارد كبيرة مكنته من تحديد معالج دولته وبناء قوات عسكرية منظمة<sup>3</sup>، أراد المعتصم بالله أن ينتهج سياسة جديدة حتى يكسب ثقة وإحترام باقي الدول والعمل على توفير الأمن والاستقرار من أجل رقي البلاد، لهذا السبب كان يطلب من السلطان العثماني هنري الثالث مع الضابط (Luis Cabrette) الذي اعتبر من أصدقاء المولى عبد الملك في الجزائر، لأخبار ما يجري ببلاد المغرب ويتولى حكمها وقد كلفه الضابط بنفس المهمة لدى ملك

<sup>1</sup> - أبو العباس احمد بن خالد الناصري، المرجع السابق، ص 58.

<sup>2</sup> - عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 101.

<sup>3</sup> - محمد السيد محمد أبو رحاب، المرجع السابق، ص 183.

إسبانيا فليب الثاني، كما أرسل إلى فرنسا ولدى هنري الثالث نفسه سفيرا آخر يدعى (Cruillaume Berard) لإبرام حلف بين المغرب وفرنسا<sup>1</sup>، توفي المعتصم بالله في المعركة التي دارت بين المسلمين والبرتغاليين نتيجة لتأثره بالصمم، ولم يعلم بوفاة سوى حاجة رضوان العليج كما توفي في تلك المعركة محمد المتوكل دون سيسيتيان وسميت هذه المعركة بمعركة الأباطرة الثلاثة، بعد وفاة المعتصم خلفه أحمد المنصور الذهبي الذي تمت مايعته في معركة واد المخازن ثم بفاس حيث يمثل عهده أوج ازدهار الدولة السعدية وأزهى عهودها في تاريخ المغرب لكن بعد وفاته تغيرت احوال البلاد انتشرت الأهوال والاضطرابات والفتن وأصبحت البلاد في حاجة إلى من سيرها وينظمها<sup>2</sup>.

في شهر شوال سنة 992هـ أراد أحمد المنصور أن يضع حدا للتراع الدائر حول أبنائه، وذلك من خلال تجديد البيعة فحضر الأعيان وأهل الحل العقد، فبايع محمد المأمون وقسم البلاد من أجل لم شملهم فعقد لأبي الحسن على مكناسة وما والها، وعقد لزيدان على تادلا وبعدها إلى مكناسة، فنقل لإبي الحسن شقيق المؤمن على السوس<sup>3</sup>. وبعد صراع طويل بين الأخوين فلتقى الجيشان بمكان يدعى حوارة على ضفة نهر أم الربيع<sup>4</sup> وإنهزام زيدان دفع الأمر به إلى الإلتجاء إلى تلمسان فقويا بذلك جيش المأمون بفضل إنضمام جيش أخيه إليه، وهكذا بعدما إستولى محمد المأمون على مدينة فاس دار على أخيه أبي فارس<sup>5</sup>، فقام بتوجيه جيش ضخم إلى مدينة مراكش بقيادة ولده وكانت النهاية حتمية بإنتصار عبد الله بن المأمون على مراكش وهروب أبي فارس. وبعدها علما بأن زيدان بأن عبد الله بن المأمون إستولى على فاس فخرج مسرعا من مراكش قاصدا إياها من أجل إعادتها فدخلها فعلا سنة (1019هـ/1610م) فإلتقى الجيشان وكانت بذلك خسارة لجيش زيدان وهنا تأكد زيدان من ضرورة ترك فاس دون العودة إليها وغير فكرته نحو مراكش وجميع المناطق التابعة لها شمالا وجنوبا<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> - عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص ص 99-100.

<sup>2</sup> - محمد السيد محمد أبو رحاب، المرجع السابق، ص 89.

<sup>3</sup> - أبو العباس بن أحمد خالد الناصري، المرجع السابق، ص ص 116-117.

<sup>4</sup> - محمد الفاسي، شعراء الملحون السلويون، العدد 33، ص 126.

<sup>5</sup> - مجهول، المرجع السابق، ص ص 37-38.

<sup>6</sup> - أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى (الدولة السعدية)، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج6، بيروت - لبنان: الدرا البيضاء، ط1، 1997، ص ص 18-19.

استنتاج :

لم تدم فترة حكم الدولة الوطاسية فترة طويلة وهذا راجع لمجموعة من الأسباب منها:

- تعرضها للغزو البرتغالي الذي خرب ودمّر العديد من مدنها وهذا ما كان له نتائج سلبية.
- إزدياد قوة ونفوذ الزوايا ومشايخها التي كانت تقوم بمهمة حركة الجهاد.
- إضافة إلى الاستقلال الذاتي لبعض المدن المغربية التي كانت تعتمد في أساسها على توريث الحكم كإمارة شفشاون مثلا وقد نتج عن هذا.
- إنتشار الجهل والامية في كامل التراب المغربي حيث أصبحت العقول تؤمن بما يقوله المشعوذون، كما إنتشرت خرافات التي أدّت إلى إفساد الأذهان وتخطيم العزائم.
- ونتيجة لهذا ظهرت سلطة الأشراف السعديين التي كان لها الفضل الكبير في مواجهة المحتل الأجنبي.
- كما أصبح المغرب بفضل هذه الدولة القوية يحضى بالاحترام الدولي القوي، وهذا ما جعل العديد من الدول بل كل الدول تسعى إلى الصداقة وعقد علاقات معه.

# الفصل الثالث

## العلاقات بين المغرب الأقصى والبرتغال خلال القرن (10هـ/16هـ)

المبحث الأول: العلاقات الوطاسية البرتغالية.

المبحث الثاني: العلاقات السعدية البرتغالية.

المبحث الثالث: معركة وادي المخازن.



## تقديم:

لقد تأرجحت العلاقات المغربية البرتغالية بين الحرب والسلام خلال القرن السادس عشر ميلادي، فمثلا كانت العلاقات الوطاسية البرتغالية تتسم بالحرب التي ترجع إلى أولى عمليات الاحتلال الإسباني والبرتغالي وخاصة عندما أقدم البرتغاليون على إحتلال مدينة سبتة سنة 1415م، وهنا إعتبرت قشتالة ملكة البرتغال نفسها صاحبة القرارات، إضافة إلى حروب أخرى وقعت بين الطرفين والتي كانت لها نتائج على كلى الطرفين، كما تميزت العلاقات الوطاسية البرتغالية بنوع من السلم والذي تمثل في الإتفاقيات والمعاهدات المبرمة بينهما، سواء المعلنة أو الخفية، كعقد الهدنة بين محمد الشيخ و(الفونصوا الخامس) كانت سنة 876هـ/1471م حيث كانت تلك الهدنة في خدمة الطرفين.

أما فيما يخص العلاقات السعدية البرتغالية فإنها هي الأخرى تميزت بنوع من السلم والحرب حيث إختلفت من فترة حكم ملك إلى آخر، فمثلا في فترة حكم أحمد الأعرج كانت العلاقات علاقة صراع وهذا لإهتمام المغاربة بمواصلة الجهاد ضدّ العدو.

كما عرفت نوع من السلم خلال هذا العهد، أما فيما يخص عهد محمد الشيخ فإن العلاقات كانت تتأرجح بين التوتر والسلم حيث كانت علاقات التوتر في البداية ثم أصبحت سلمية حيث وقع محمد الشيخ المهدي مهادنة مع البرتغاليين، ومن هنا نقول أن العلاقات السعدية البرتغالية كانت بين سلمية وحربية.

## المبحث الأول: العلاقات الوطاسية البرتغالية في القرن السادس عشر ميلادي الموافق للعاشر هجري، (1471-1554م)

لقد تم الحديث عن الاحتلال البرتغالي<sup>1</sup> للشغور المغربية في عهد الوطاسيين والذي ترك إنطباع في نوعية العلاقات بين البلدين (الوطاسيين والبرتغاليين)، إذ تمت الإشارة إليه في الفصل الأول ونركز في هذا الفصل على طبيعة العلاقات الوطاسية البرتغالية (في حالة السلم أو الحرب) من نهاية القرن التاسع هجري الخامس عشر ميلادي وبداية القرن العاشر هجري السادس عشر ميلادي (9هـ-15م / 10هـ-16م) فمثلا في مرحلة الحرب التي ترجع إلى أولى عمليات الاحتلال الإسباني والبرتغالي وخاصة عندما أقدم البرتغاليون على احتلال مدينة سبتة إذ دخلوها يوم الأربعاء منتصف جمادى الأولى 818هـ، 02 أوت 1415<sup>2</sup> وقد اعتبرت قشتالة نفسها صاحبة القرارات التي تهدف للاستلاء على الأراضي المغربية، حيث كان ملكها خوان الثاني قدم هدية ثمينة كرمز والمتمثلة في قطعة نقود تحمل اسم المرابطي (Maravedi) إلى دوق مدينة سيدونية للتوسع في ساحل إفريقيا.

لقد أخذت هذه التوسعات إتحاهين كان الأول متمثل في إسبانيا التي بدأ توسعها بين رأس درعة ورأس جوبي والمنطقة التي عملت اسم لاماريكيينيا كما قيل، وبذلك أسسوا حصن سانطا كروز، وما يثبت ذلك هو القرار الذي أصدره البابا نيكولا الخامس بتاريخ 08 (يناير) جانفي 1454 م والذي يسمح للبرتغال بامتلاك سبتة وما جاورها، من رأس نون إلى غينيا وبالتالي تم الاستلاء على العاصمة تامسا وأصبحت كالحراب الشامل، وهذا ما نجده في كتاب وصف إفريقيا لحسن ابن الوزان المعروف بليون الإفريقي الذي تأسف على هذه المدينة لما آلت إليه والتي كانت قاعدة علمية في عهد بني مرين<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - البرتغال: كلمة مأخوذة من (Putuscole) وهو الميناء الواقع على مصب نهر دويرة (Doura) قامت سنة 1109م وبقيّة ملكية حتى 05 تشرين الأول (أكتوبر) 1910م مساحتها تقدر بـ 91,53 كلم<sup>2</sup> متوسط عرضها 12 كلم طولها من الشمال إلى الجنوب 593 كلم وعدد سكانها اليوم عشر ملايين نسمة. ينظر: شوقي أبو خليل، معركة وادي المخازن معركة الملوك الثلاثة - القصر الكبير، بيروت - لبنان: دار الفكر المعاصر، ط1، 1988، ص 11.

<sup>2</sup> - محمد بن القاسم الأنصاري السبتي، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط: ط2، 1983، ص 27.

<sup>3</sup> - عبد الهادي التازي، الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب، ج2، الرباط: مطبعة المعارف الجديدة، ط1، 2001، ص 271.

بعد القضاء على مدينة "أنفا" تم الإستيلاء على مدينة أصيلا من طرف البرتغال وهذا بعد إتفاق إسبانيا والبرتغال حيث تم إبرام معاهدة بينهما سميت بـ (Alcaçovas) وذلك بتاريخ 04 شتنبر (سبتمبر) 1479م بين مملكة قشتالة ومملكة البرتغال، وجاءت بعدها معاهدة طليطلة<sup>1</sup> بتاريخ 6 مارس 1480م، هذه الأخيرة أنهت الصراع الذي كان بين المملكتين حول من يتولى حكم العرش، وقد منحت هذه المعاهدة لمملكة قشتالة<sup>2</sup> جزر كناريا مقابل تنازلها عن مملكة فاس والساحل الإفريقي لصالح البرتغال. وبعد إستلاء البرتغال على مدينة آسفي ثم على مولاي بوشعيب (أزمور) أصبحت البرتغال تطالب بحقوقها على كامل الساحل الأطلسي وهذا كان السبب الرئيسي في نشوب والتهاب نيران الصراع من جديد بين هاتين المملكتين<sup>3</sup>، وهذا ما دفع جيان الثاني حاكم البرتغال من سنة 1481م إلى غاية سنة 1491م إلى عقد معاهدات وإتفاقيات مع شيوخ القبائل وخاصة تلك المحيطة بالمينائين، وهذا حتى تتحصل هذه الأخيرة على الإمتيازات التي تريد الوصول إليها.

بينما الملك عمانويل الأول (Emanuel 1) الذي حكم البرتغال سنة 1491م، فقد تركزت أنظاره على مدينة آسفي وهو الثغر المغربي الواقع على شاطئ البحر المحيط بأقصى الغرب، وحسب صاحب معجم البلدان الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، أن هذه المدينة كانت تتزعمها عدة سلطات منها السلطة الوطاسية الضعيفة، وسلطة رؤساء القبائل، إضافة إلى سلطة البرتغاليين المتسربة عن طريق الدسائس مع مشايخ القبائل<sup>4</sup>.

1- طليطلة: هي مدينة يشقها نهر عظيم يدعى تاجة يخرج من بلاد الجلالقة والوشكند، وهي أمة عظيمة لهم ملوك، يصب نهرها الغزير بمياهه في البحر الرومي وهو من أنهار العالم، وعليه على بعد من طليطلة مدينة طليطلة ثم قنطرة السيف، تعتبر طليطلة ذات منفعة عليها أسوار منيعة. ينظر: أبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، مر: كمال حسن مرعي، ج1، بيروت: المكتبة العصرية، ط1، 2005، ص 125.

2- قشتالة: تقع قشتالة بين ليون ونبارة يحكمها زعيم محلي مقره يزعرش العاصمة، حملت قشتالة على استقلالها منتصف القرن الرابع هجري العاشر ميلادي على يد فران غونزالص (359هـ / 970م) وخلفه ابنه عاريسه وحكم حتى سنة 412هـ / 1021م. ينظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ج3، القاهرة: مكتبة خانجي، ط1، 1997، ص 07.

3- عبد الهادي التازي، المرجع السابق ص 273.

4- شوقي عطا الله الجمل، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط 1، 1977، ص 51.

يحدثنا الحسن الوزان عن هذه المدينة فيقول: ألها كانت مدينة تجارية هامة، وكانت تلعب دورا هاما في التجارة غرب إفريقيا وشمالها الغربي، لكن أشار إلى كثرة النزاع القائم بين مختلف قبائلها وحيث استفادت الدول الاستعمارية من هذه النزاعات لتدعيم قوتها و بسط نفوذها في مدينة آسفي<sup>1</sup>

ولما تأخر ملك البرتغال في الرد، وجه سلطان فاس نصا خطايا مصحوبا بتاريخ 28 ذي القعدة 920هـ، 14 يناير جانفي 1515 م، وهذا حسب ما ذكر في كتاب الإستقصاء لصاحبه أبو العباس أحمد بن خالد الناصري<sup>2</sup>، كما توجد رسالة أخرى من البابا أحمد بن عم الشريف سلطان فاس إلى ملك البرتغال دون جوان بتاريخ 930هـ، 01 مارس 1524، والتي هنا فيها البابا أحمد جوان بأنه إلتقى مع الحكام والكبار وفي إعتقاده بوجود سفن برتغالية ليسافر حيث إستقبلوه بكرم أهل تافيلات<sup>3</sup>.

وهذا ما أوردته الإتفاقيات والتي أبرزت لنا المدينة التي كانت بين السلطان أبي العباس الوطاسي و ملك البرتغال، عام (932هـ / 1526م) والتي من خلالها نلاحظ ونلمس كيف كانت نوعية الرسائل المتبادلة بين الوطاسين والبرتغاليين، فقد تناولت الرسالة المبعوثة من مسعود بن الناصر محمد الشيخ إلى الكونت دولينها ريس (Delinharés) بتاريخ 03 ذي الحجة 933هـ، 17-26 شتنبر (سبتمبر) 1527م، والتي تبرز مكانة ودور اليهودي بين بعض القوى وخاصة البرتغالية المبتدأة بـ: "الحمد لله وبعد قد وصلنا اليهودي ولا رأينا منكم كتابا ونحن كتبنا للسلطان جواب مع كتابه مع إبراهيم الحزان اليهودي ونحن منتظرين جوابه". أي ألها كانت معبرة عن عواطفه جهة الكونت ولومه على عدم مراسلته وأنه أجاب عن الرسالة المبعوثة من طرف جان الثالث عن طريق إبراهيم بن زامير.

1- شوقي عطا الله الجمل، مرجع نفسه، ص 52.

2- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج4، الدار البيضاء : دار الكتاب، 1997، ص 143.

3- تافيلات أو تفيلات، إسم بربري لإقليم واسع يقع وراء الأطلسين المتوسط والكبير متاخما لواجهات فجيح وحدود الجزائر شرقا وبسائط درعة ونجودها غربا، تجري في تافيلات أهر غريس وزيزوكير فتكثر على ضفافها أشجار النخيل وتعدد الواحات الخضراء. كما يطلق على هذا الإسم أيضا إسم عاصمته القديمة سحلماسة التي أسسها بنو مدراد في منتصف القرن الثاني الهجري واتخذوا منها عاصمة لإمارتهم الخارجية ، وقد فقدت مدينة سحلماسة أهميتها السياسية مع المرابطين ومن جاء بعدهم من الدول إلا ألها ظلت محتفظة بحيويتها التجارية كمركز مهم في طريق القوافل العابرة للصحراء والجالية لذهب السودان. فقد ألقت فيها وفي سكانها من الأشراف كتب عديدة نذكر منها: رسالة لأحمد بن أبي محلي التائر المشهور. ينظر: محمد حجي، المرجع السابق، ص 520.

ويكون الردّ بيعث أحد خدامه<sup>1</sup> ومع أواخر ذي الحجة عام 934هـ، 14 شتنبر (سبتمبر) 1528م عثر على رسالة من مولاي أحمد العطار إلى الكونت ديلينها ريس المعيرة عن المحبة، وأن اليهودي وصل دون أي جواب في انتظار الردّ متى يصل الرسول من إجبوة (لشبونة)، كما نجد رسالة أخرى مبعوثة إلى حاكم أزمور بتاريخ 07 شعبان 936هـ، 06 أبريل 1530م. إلى حاكم أنطونيو ليت (Antonio leite) من قبل محمد بن الحسن زنبق الذي كان السلطان أبي العباس أحمد الوطاسي وفحوا الرسالة هو إبرام معاهدة عن طريق الشيخ يحيى بن الديب الترجمان بأزمور لتكون هدنة ثلاثون يوما (30)، وطلب من أنطونيو ليت إعادة اللجامين المسروقين من محلة السلطان أبي العباس، وكان بطلب شخصي من محمد زنبق<sup>2</sup>.

أما النوع الآخر من الرسائل والمؤرخة بتاريخ 16 رمضان 948هـ الموافق لـ 03 يناير (جانفي) 1542م الموجهة إلى جان الثالث من طرف سفير البرتغال المقيم بإستياو ودوفار كاش والتي إحتوت على :

1. محاولة مفاوضة الشريف السعدي بالتوسط عن طريق رجال الدين لكن دون جدوى بسبب عناد الشريف وأخيه محمد الشيخ، وذكر فيها كذلك خبر فشل الإمبراطور شارل لكان ملك إسبانيا في قهره للجزائر (أكتوبر 1541م) الذي كان طرفا إيجابا لأهل فاس، كما ذكر فيها أن قائد شفشاون محمد بن علي بن راشد إدعائه بأن البرتغاليين يريدون ترك (القصر الصغير) ويحل محلهم الأندلسيين<sup>3</sup>.

كما وجهت له رسالة أخرى من جان الثالث بتاريخ 18 رمضان 948هـ، 05 يناير (جانفي) 1542م التي يعلمه فيها بوجود سفير من حاكم ولاية المغرب الأوسط إسمه حسن آغا الذي قام بالقضاء ودحر الإمبراطور شارل لكان، وأنه عمل على إخفاء المهمة الحقيقية للمبعوث التركي<sup>4</sup>.

أما عن الرسائل التي كانت لها علاقة بإنتقال الزعامة والحكم من الوطاسيين إلى السعديين فهي كثيرة نذكر منها: الرسالة المؤرخة بتاريخ محرم 956هـ، 03 فبراير 1549م الموجهة من أبي حسون ملك بادس إلى شارل لتقديم المساعدة ضد الأشراف السعديين الذين يمثلون عائق كبير أمامهم، لكن بمساعدة الأتراك السعديين

1- ليلي أنخيلة، المرجع السابق، ص 60.

2- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 288.

3- عبد الهادي التازي، المرجع نفسه، ص 294.

4- عزيز سامح أتر، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، تر: محمود علي عامر، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر،

ط1، 1989، ص 158.

الذين كان لهم نفس الهدف وهو محاولة طرد وتصفية الوطاسيين الموالين لإسبانيا وكان ذلك يوم 28 ذي الحجة 955هـ، 28 يناير (جانفي) 1549م، بعد القهر والفقر الذي عاشه أهل المدينة<sup>1</sup>.

كما تم عقد العديد من الإتفاقيات والهدنات والتي حملت في طياتها عدة بنود وغايات سواء كانت معلنة أو خفية، والتي كانت في خدمة طرف على حساب الطرف الآخر ففي عام (815هـ / 1412م) أرسل محمد الشيخ الوطاسي أخاه الملقب بالحلو ليكون سفيراً عند البرتغاليين بدلا منه لمعرفة أمور وأحوال البلاد وبعد مدة طويلة ثم عقد هدنة كانت بين محمد الشيخ والفونسوا الخامس أواسط ربيع الأول 876هـ أواخر غشت 1471م، والتي كانت لخدمة الطرفين لكن في الحقيقة كانت هذه الهدنة هشة في عدة مرات حسب ما أورده لنا الحسن الوزان، وهذا ما جعل ملك فاس يعتبر نفسه المسؤول الوحيد عن كل ما يحدث للمواقع من غزو برتغالي خاصة في دكالة والجنوب، لذلك كان يشتكي في العديد من المرات، كما أن الوزان ذكر لنا عند زيارته مرسى تفتنة (Tefethne) الواقعة على المحيط الأطلسي فوجئ لما رآه أن التجار البرتغاليين كانوا يبيعون أغراضهم له مقابل شراء الشمع والجلود والماعز<sup>2</sup>.

أما عن حديثه عن الجبل الأخضر فقد صور لنا أجمل صورة لحالة الركب الملكي في تلك الأحوال والتي من خلالها نلاحظ مدى الهوة التي كانت بين اللحظة والأخرى وهذا ما تفسره لنا تلك الرسائل التي كانت متداولة ما من السلطان محمد البرتغالي وملك البرتغال والتي كانت الغاية منها نجده أهل "دكالة"<sup>3</sup>.

1- المرجع نفسه، ص 178.

2- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 285.

3- دكالة: يطلق هذا الاسم على مجموعة القبائل القاطنة بالناحية التي تفصل الشاوية عن عبدة والرحمانه وتقسم جغرافيا إلى:  
1 الیولجة: وهي الأرض الممتدة على الشاطئ الأطلنطي في إتساع يتراوح بين واحد وثلاثة (1، 3) كيلومترات صالحة لزراعة الحناء والخضر وبعض الفواكه والحبوب.

2 الساحل: هو عبارة عن أراضي القيرص والحمري الخصبة الصالحة لزراعة الحبوب ويشق هذه الأراضي وادي ام الربيع تبلغ مساحتها خمسة مئة وستة وثمانون ألف هكتار (586000) وكلها محروثة بأنواع الحبوب والقطن، أما تربية الماشية والداوجن فهي مزدهرة بما مما جعلها مضرب الأمثال وعاصمة الناحية وهي المدينة الجديدة، وكانت الدكالة قديما تنقسم إلى قسمين، دكالة بيضاء في الشمال ودالة حمراء في الجنوب، وكان بها في القرن الثامن خمسة وعشرون (25) مدرسة من مدارس العلم وأنجبت عددا كبيرا من العلماء الصلحاء. ينظر: الصديق بن العربي، كتاب المغرب دار الغرب الاسلامي: الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ط3، 1984، ص 134.

عند إقامته في تومكسلات (Tumeglast) إجتمع مع شخص كان يقوم بجمع الضرائب لملك البرتغال وذلك كان عام 920هـ، 1514م وكان ذلك الشخص هو يحيى بن محمد أوتاعفوف<sup>1</sup>.

أما عن طبيعة العلاقة البرتغالية مع مختلف المدن المحتلة فقد أخذت جانب الحرب والاستغلال وتطبيق مبدأ فرق تسد كما هو معروف مع بعض الثغور نذكر منها: بعض الرسائل المختلفة التي كانت بين ملوك البرتغال والأهالي في السواحل الجنوبية.

تشير معظم المصادر التاريخية أن مدينتي (آزمور) و(أسفي) كانت قد إهزمتا من طرف القوات البرتغالية وذلك عندما تولى الملك دون جوان الثاني الحكم عام (885هـ / 1481م)، وقد حول من مدينة (أسفي) المحطة التجارية الرابطة بين غانا والبرتغال وذلك بعد سيطرته عليها كلياً وما يثبت صحة ذلك الرسالة الموجهة إلى أهالي المدينة في سنة (893هـ / 1488م)، والتي إستهلها بقوله: "من دون جوان بنعمة الله سلطان البرتغال والغربيين المحيطين بالبحرية وصاحب كناوة الذهبين" مؤكداً رضاه بشرط أن يدفعوا له كل شهر ثلاث مائة (300) مثقال ذهباً، كما يسمح لهم برفع العلم بعد تأدية اليمين مع ضمان إقامة لإستقرار التجار البرتغاليون<sup>2</sup>، أما الرسالة الثانية فكانت رسالة موجهة من طرف أهالي مدينة (آزمور) منذ عام (891هـ / 1486م) والتي جاءت على ثلاثة أنماط.

- النمط الأول: الرسائل المؤرخة في 01 رجب 91هـ، الموافق ل: 03 يوليو 1486م وبمقتضاها يتعهد جان الثاني وذلك بتولي حكمهم وتوفير الحماية لهم.
- النمط الثاني: تحويل الاتفاقية إلى رسالة مبعوثة إلى جان الثاني وتبيين شروط الوفاق وذلك بتاريخ 15 شعبان 891هـ. 16 غشت 1486م .

1- يحيى بن تاعفوف: ملك إفريقي من أتباع ملك البرتغال كانت تحت سيطرته جل أعراب الغرب والأفارقة الأهليون. ينظر: مارمول كرينال، المرجع السابق، ص 11.

2- فالخ حنظل، العرب والبرتغال في التاريخ، أبو ظبي: منشورات المجتمع الثقافي، ط1، 1997، ص 109.

النمط الثالث: إعادة كلية من قبل إيمانويل الأول في إسطريموز (Estremoz) بتاريخ 08 جمادى الأولى 902هـ - 12 يناير (حانفي) 1497م. وهذه الرسائل تبرز محتوى الرسائل المحررة في رجب 891هـ، 03 يوليو 1486م<sup>1</sup>.

أما الرسالة الأخرى فكانت من أهالي آسفي إلى ملك البرتغال عمانويل الأول والتي كانت مؤرخة سنة (914هـ / 1509م) والتي إشتكوا فيها من ظلم العامل وتعسف جنوده، وبعد إطلاع الملك على أحوالهم المضطربة وأنهم متمسكون بطاعته، يخبرونه بمدى القهر الذي يعانون منه وذلك بسبب عامل آسفي وما يقوم به الجنود البرتغاليون فيها من فوضى وتخريب وظلم كل هذا قد أدى إلى إنعدام وإضعاف التجارة. وختموا رسالتهم بطلبهم من الملك البرتغالي أن يولي على آسفي عاملاً عادلاً يستطيع أن يصلح ذات البين بين سكان المدينة والقبائل المحيطة بها وذلك رغبة منهم في إحياء وإزدهار البلاد من جديد<sup>2</sup>.

لقد بعث أهالي ماسة رسالة إلى الملك البرتغالي (عما نويل الأول) وذلك سنة (915هـ / 1510م)، والتي بدأها بالعبرة التالية (يصل بيد السلطان العادل سلطان البرين وأقاليم الهند دون منوال). ليخبرهم بمدى الفرحه العارمة التي عمّت عليهم خاصة عندما سمعوا بأن ملك البرتغال سيعمل على إقامة بلدتهم ويذكرونه بتفانيهم في طاعته شاكرينه على الأمن الذي أحسوا به في ظله ببلادهم، ثم يخبرونه بمدى تعرض سفنهم للنهب في البحر وهذا مما جعل جيرانهم يسخرون منهم ويؤكدن له بإعادة الاعتبار لهم واسترجاع حقوقهم المسلوبة منهم وبأمر البرتغاليين بعدم إذايتهم وكان من أهل ماسة<sup>3</sup>.

يتبين لنا من خلال هذه الرسائل المبعوثة من ولي البرتغال، ان طبيعة العلاقات التي كانت تربط بعض الثغور المحتلة مع البرتغال كانت تتسم بالخضوع، والظلم والفساد والهيمنة والاحتلال لم تعرف يوماً حالة السلم، كما أنها كانت دائماً في صراع لم يشهد له من قبل التي تعيش حالة سياسية مزرية والأوضاع الاقتصادية المتدهورة التي كان عليها المغرب وخاصة في عهد الملك البرتغالي "عما نويل الأول"، حيث زاد

1- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 311.

2- عبد الكريم كريمة، المرجع السابق، ص 15.

3- ماسة: تتكون من ثلاثة مدن صغيرة والتي تبعد كل منهما عن الأخرى بنحو ميل وقد أسسها الأفارقة القدماء على شاطئ المحيط عند قدم الجبل الذي يتكون من بداية الأطلس وتحيط بهذه المدن أسوار من الآجر النبي، والتي يمر بينها نهر سوس الكبير والذي يمكن عبوره بسهولة في الصيف، ويتعذر ذلك في الشتاء إلا بقوارب صغير معدة لهذا الشأن. ينظر: حسن بن محمد الوزان الفاسي، المعروف بليون الأفريقي، المرجع السابق، ص 113.



الظلم والتعسف فكانت الخطوات الأولى لدولة الوطاسيين الذين اتسم حكمهم بالضعف والذي لعبت فيه القوات الأسرية الدور الريادي، وقد سعى الحكام الوطاسيون إلى طلب الهدنة وعقد العديد من الاتفاقيات مع القوتين، البرتغالية والاسبانية لانقاذ بعض مدن المغرب المحتلة وإبقاء سلطتهم في مدينة فاس<sup>1</sup>.

أما عن طبيعة العلاقات مع معظم المدن فيمكن تلخيصها فيما يلي:

### 1. مع أزموور (981هـ / 1486م):

وذلك من خلال عقد معاهدة مع شيوخ أزموور والرامية إلى بناء حصن برتغالي في الميناء لكن هذا الشرط حال دون التنفيذ بسبب تعرض معظم السفن البرتغالية الراسية في ميناء أزموور للهجوم.

لقد قدم السكان الاعتذار للملك عمانويل الأول قبله لتوسط زوجته في الأمر لكن مقابل إعطائه المال وكمية كبيرة من القمح كرم للصدقة الجديدة مغتتما فرصة الصراع الوطاسي في تحقيق حلمه فلجأ مولاي زيان الأزمووري لمناقشة الموضوع مع الملك لإعداد الحملة ففعلا بنى حصن البريجة بطريقة الجديدة<sup>2</sup>.

1- فاس: هي مدينة مشهورة كبيرة على بر المغرب من بلاد البربر، وهي حاضرة البحر وجل مدنه قبل أن تحتط مراکش وفاس محتطة بين ثنتين عظيمتين، فيها يصبغ الأرجوان والأكسية وقلعتها في ارفع موضع وفيها ثلاثة جوامع يخطب يوم الجمعة في جميعها، قال البكي يهجو فاس:

|                                              |                                              |
|----------------------------------------------|----------------------------------------------|
| فَرَاقُ الْهَمِّ عِنْدَ خُرُوجِ فَاسٍ        | لِكُلِّ مُلِمَّةٍ تَخْشَى وَبَاسٍ            |
| فَأَمَّا أَرْضُهَا فَأَجَلُ أَرْضٍ           | وَأَمَّا أَهْلُهَا فَأَخْسُ نَاسٍ            |
| مِنْ أَرْضٍ مِصْرَ إِلَى أَقْصَى قُرَى فَاسٍ | مُصَ الْخَلِيعِ زَمَانُ الْوَرْدِ لِلْكَأْسِ |
| وَقَالَ: دَحَلْتُ بَلَدَةَ فَاسٍ             | تُرَزَّقُ اللَّهُ فِيهِمْ                    |
| فَمَا يُيسِرُ مِنْهُمْ                       | أَنْفَقْتُهُ فِي بَنِيهِمْ.                  |

ينظر: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، معجم البلدان، مجلد 1، بيروت: دار صادر، ص 231.

2- البريجة: تقع شمال أسفي، وقد تهدمت أثناء حصار السلطان محمد بن عبد الله العلوي فسميت المهذومة وبعدها سميت الجديدة. ينظر: شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص 59.

## 2. مع مشراية (908هـ / 1502م):

كانت الرسالة موجهة إلى مشراية أو مشراية (Mechenzaya) إلى الملك أيمانويل الأول التي تحمل تاريخ 03 جمادى الأولى 908هـ، 04 نوفمبر 1502م بعدما طلب يحيى الويات الخضوع الكامل لسلطته كشرط لضمان أمن حياتهم من طرف ملك البرتغال<sup>1</sup>.

وأن تاريخ (945هـ / 1538م) الذي يحمل اتفاقية عنوانها (السلام) بين ملك البرتغال وملك (جوان الثالث) فاس وذلك بعد تقديم ترخيصات للقبطان كونتينه حاكم مدينة أصيلا (Coutinho) عام (19 صفر 944هـ / 28 يوليو 1537م)، كما عقدت هدنة مدتها إحدى عشر سنة عن طريق البر والبحر وفق شروط بتاريخ 19 جمادى الأولى (944هـ / 24 أكتوبر 1537م)، حيث كانت موجهة من طرف ملك فاس إلى مولاي إبراهيم بن راشد قائد شفشاون.

1. على المغاربة التابعين لملك فاس مولاي إبراهيم، والمقيمين في الأراضي المنبسطة حول المواقع البرتغالية أن يقدموا إشارة سنوية تتضمن عشر خيول إلى ملك البرتغال.
2. منع إستقبال السفن المعادية لأحد الطرفين على ميناء كل من الطرفين .
3. إصلاح الخسائر اللاحقة بكل فريق من قبل الطرف الآخر.
4. في حالة إعتداء طرف على آخر تطبق عليه العقوبات الجسدية التي إستوجبها دون الالتجاء إلى الإجراءات النقدية.
5. حرية التجارة بين المسلمين والمسيحيين باستثناء الأسلحة والمواد الحربية .
6. مصادر القطعان التي تتسرب بدون إذن في المناطق التي ليست لها.
7. تفرض الغرامات عند الإقتضاء على الذين يهربون السلاح من كل الطرفين إلى الجانب الآخر<sup>2</sup>.

ظهرت بنود هذه الإتفاقية البرتغالية في تقرير الوجهة من طرف قرمان دي هيريرا (Gusman de Herrera) والي جبل طارق بتاريخ ذي الحجة (944هـ / 1538م)، حيث شرح لدولته أن جميع المغاربة القاطنين بضواحي أصيلا، القصر الصغير، وطنجة، وسبتة كلهم تحت

1- عبد الهادي التازي، المرجع السابق، ص 316.

2- المرجع نفسه، ص 291.

سيطرة ملك فاس دون إستينا وكذا، جميع الوسائل ماعدا المواجهة المسلحة، وشرح تقرير البند الثالث الذي نص على: (وإذا ورت سفن تركية أو فرنسية أو سفن تابعة لمسيحين ليسوا برتغال على موانئ برتغالية وهي تحمل أسرى أو أرقاء مغربية للبيع فلا تشتريهم البرتغال وإذا حملت مسيحين برتغاليين فلا يشتريهم المغرب وساعد كل طرف الطرف الآخر على الاحتفاظ بالأرقاء<sup>1</sup>.

1- المرجع نفسه، ص 291.

المبحث الثاني:

العلاقات السعدية البرتغالية في عهد الأمير أبي أحمد الأعرج (923هـ - 1517م / 946هـ - 1540م):

اتسمت العلاقات البرتغالية السعدية في عهد أحمد الأعرج بما يلي: كان السعديون خلال هذا العهد مهتمين بدرجة كبيرة بمواصلة الجهاد ضد العدو الخارجي ولم يذهب عمل بدون نتيجة بل استطاع أن يحرر بعض المدن التي كانت تعاني من وطأة العدو كأسفي التي احتلت العديد من المرات<sup>1</sup>. بينما أحمد الأعرج الذي ولد سنة (891هـ / 1486م)، وبويع وليا للعهد سنة (918هـ / 1512م)، لكنه توفي مغدورا يوم الخميس 27 محرم (964هـ / 1557م) بقرب مدينة تارودانت، وبويع بعد وفاته ولده أبو محمد بفاس<sup>2</sup>.

كانت العلاقات السعدية قد اتخذت سياسة مغايرة اتجاه البرتغال والاسبان واعتبرت بذلك وجهين لعملة نقدية واحدة، إذ كانت حاقدة عليهم وخاصة مملكة إسبانيا في بعض الأحيان، وفي أحيان أخرى كانت تتصف بالمهادنة والمعاشية، ثم تعود إلى المواجهة والعداء الكلي مرة أخرى وخاصة مع مملكة البرتغال التي ظلت قائمة مدة طويلة ولن تنتهي إلا بمعركة القصر الكبير<sup>3</sup> (El cacer Quabir)، رغم كل هذا العداء بين السعديين والبرتغاليين إلا أنه كانت معاهدة موقعة من طرف أحمد الأعرج مع البرتغاليين وقد تمت هذه المعاهدة سنة 1537م ودامت مدتها ثلاثة سنوات وكانت لصالح أحمد الأعرج، حيث تمكن من خلالها من السيطرة على الكثير من المناطق الواقعة في القسم الجنوبي وخاصة منطقة درعة<sup>4</sup>، لكن هذا الأخير وقع بينه وبين أخيه محمد الشيخ خلاف دفعه إلى الانقلاب عليه وكان ذلك سنة 991هـ الموافق 1544م حيث أفشل قواه ومنعه من مواصلة عمله<sup>5</sup>.

1- جلول بن قومار، المرجع السابق، ص 49.

2- أحمد ابن القاضي، لقط الفوائد من لفاظة حقق الفوائد، تح: محمد حجي، ج2، بيروت - لبنان: دار الغرب الاسلامي، ط1، 1996، ص 964.

3- أحمد بوشرب، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه، الرباط: الدار البيضاء، ط1، 1997، ص 117.

4- درعة: هي مدينة صغيرة بالمغرب تقع في الجهة الجنوبية من المغرب بينها وبين سجلماسة أربع فراسخ تكثر فيها تجارة اليهود وأكثر ثمارها القصب اليابس ينسب إليها أبو زيد نصر ابن علي بن محمد الدرعي، سمي سعد بن علي ابن محمد الزنجاني بمكة، ومنها أيضا أبو الحسن الدرعي الفقيه. ينظر: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، المرجع السابق، ص 451.

5- محمد حجي، جولات تاريخية، ج1، بيروت: دار الغرب الاسلامي، ط1، 1995، ص 10.

### العلاقات السعدية البرتغالية في عهد محمد الشيخ المهدي (946هـ، 1540م / 964هـ، 1557م):

إمتازت علاقة محمد الشيخ المهدي الذي ولد قبل نهاية القرن العاشر هجري ببضع سنوات، تلقى تعليمه بسوس ثم بفاس، كان له ثلاثة أولاد الذين تعاقبوا على الحكم بعده وهم عبد الله الغالي وعبد الملك المتوكل وأحمد المنصور. وقد تولى هذا الأخير الحكم بعد وفاة أبيه في (946هـ، 1540م) ودام ذلك حتى سنة (964هـ / 1557م) امتاز بالنظام في الملك والمحافظة عليه إلى أن توفي في 18 رمضان (980هـ / 1557م)<sup>1</sup> فساد التوتر بين الوطاسيين والسعديين في البداية لكن بعد مدة من الزمن تغيرت هذه العلاقة إلى علاقات سلمية، حيث وقع محمد الشيخ المهدي مهادنة مع البرتغاليين وكان هذا التحالف لمدة قصيرة حيث احتل البرتغاليون مناطق حساسة من البلاد، هذا الأمر أثر على حكام الجزائر مما دفعهم إلى مساعدة الوطاسيين إلى أن تمكنوا من محمد الشيخ المهدي بعد المؤامرة التي دبرها له الباب العالي<sup>2</sup>.

لكن على الرغم من بعض الانتصارات التي حققها على عدوه البرتغالي ويعود سبب هذا الانتصار لاستعانتة بالزاوية الجزولية التي كان لها الفضل الكبير في مساعدته على استرجاع العديد من المدن المغربية نذكر منها: أزموهر أصيلا، القصر الكبير، وفي النهاية كانت العلاقة بينه وبين البرتغال سليمة<sup>3</sup>.

### العلاقة السعدية البرتغالية في عهد محمد عبد الله (الغالب بالله) (965هـ - 1557م / 981هـ - 1574م):

لقد تميزت العلاقات البرتغالية السعدية في عهد أبو محمد عبد الله الغالب بالله، بين السلطان محمد الشيخ السعدي، الذي حكم المغرب (965هـ / 1557م)، إلى عام (981هـ / 1574م)<sup>4</sup>. بمظاهر مختلفة منها كثرة الثورات والحركات الانفصالية عكس ما ذكرته بعض المصادر سواء الأوروبية أو المغربية، معتبرين فترة

1- أبي العباس أحمد بن محمد المكناسي الشهير بابن القاضي، ذيل وفيات الأعيان المسمى دورة الحجال في أسماء الرجال، تح: محمد الأحمد أبو النون، ج3، القاهرة: دار التراث، 56-57.

2- الباب العالي: اسم مؤلف في العصر العثماني على المقر الرسمي لرئاسة الوزارة (الصدارة العظمى) في إستنبول، ابتداء من عام 1130هـ / 1718م وكان من قبل هذا التاريخ يطلق على البلاط السلطاني، يعرف هذا الاسم بالتركية: (باب أصفي) وهو يشتمل على الأبنية الخاصة بالنظار والصدر الأعظم وكذا المكاتب الملحقة بها. ينظر: عبد الكريم الخطيب، المرجع السابق، ص 23.

3- عبد الرحمان القباج، معركة واد المخازن (986هـ - 1578م)، مجلة الأحياء، العدد 1، 1981، ص 241.

4- محمد المنوني، قبس من عطاء المخطوط المغربي، مج 1، بيروت: دار الغرب الاسلامي، ط1، 1999، ص 56.

حكمه كانت تتميز بجملة من الخصائص (أيام سلم، عدل، أمن، أمان وانصاف وحرية) إذ تأرجحت هذه العلاقات بعقد العديد من الهدنات والمعاهدات ولو أنها كانت في الفترة الأخيرة من توليه الحكم ولأنه كان يرى أن أكبر خطأ تاريخي هو الاحتلال الإسباني والبرتغالي لبلاد المغرب باستثناء مدينة البريجة التي تم حصارها في عهده.

كان حصار مدينة البريجة ربيع 969هـ، 04 مارس 1562م وكان ذلك بتدبير من السلطان الغالب الذي أعد لحصارها جيشا قويا واستنفر لها قبائل الحوز<sup>1</sup>، وأمر ابنه محمد المتوكل المعروف عند عامة الناس بالملسلوخ الذي كان عمره آنذاك لا يتجاوز العشرين سنة (20) وبمساعدة من القائد الشاعر المجاهد الفاضل أبا زيد عبد الرحمان بن تودة (العمرائي) الذي أوكلت له مهمة الحرب، وابن السلطان صورة مدة أربعة وستين (64) يوما، رغم فشل الحصار إلا أنه هنأه على احتلالها رغم فشل الحصار، كما يذكر عبد الكريم في كتابه تاريخ الدولة السعدية بأن المجلس الملكي البرتغالي عندما علم بحصار مازكان أمر بإخلائها رغم انسحاب القوات البرتغالية في نهاية المطاف.

في تاريخ الدولة السعدية للمؤلف المجهول (المغربي) - نجد السبب الحقيقي الذي تراجعت من أجله القوة المغربية عن مازكان في قوله: (فالقائد علي بن تودة كاد احتلال البريجة فأمر السلطان بالتراجع عنه) فعاد إليها النصاري بعدما ركبوها عن طريق البحر وأدلو له بعد رحيله المحلة عنهم مالا وهدية جميلة وكأنهم قاموا بشرائها منهم<sup>2</sup>، فعمل هذا السلطان بكل ما بوسعه لجعل التقارب والتفاهم مع البرتغال والإسبان في مراكش تبقى محافظة على ما هي عليه، فسارع بذلك إلى اخذ الحيلة والحذر من طرف العثمانيين، الذين رفضوها فهناك بعض المصادر تذكر أن سبب تراجع المغاربة في البريجة راجعة إلى سياسة الغالب بالله برفع الحصار عنها،

1- الحوز: سابع إقليم في مملكة فاس، فهو ثلث مملكة فاس ويمتد من نهر زاع شرقا إلى نهاية نهر تيكريكة غربا، أي على مسافة نحو مائة وتسعين ميلا، كما يمتد عرضا على مائة وأربعين ميلا أو أكثر كما يشتمل على قسم كبير من السهول المتاخمة لليبيا، وفي الزمن الذي إحتل فيه عبد الحق آخر ملوك بني مرين مرطانيا والمناطق المجاورة لها وزع هذه الأراضي بين أفخاذ قبيلته وبين أبنائه الأربعة، وهكذا خضعت أربعة أقاليم لأبناء عبد الحق. ينظر: المرجع السابق، ص 348.

2- مجهول، المرجع السابق، ص 42.

ضف إلى ذلك نقص التموين كالوسائل اللازمة للحصار، أما المغاربة كانت بسبب الخسائر الفادحة التي تعرضوا لها<sup>1</sup>.

كما أن (الغالب بالله) قد انتهج سياسة جديد ومغايرة ومعادية لكل مظاهر القوى الحساسة (التضامن والحماس الدينيين) عرفت بسياسة الدوائر الثلاثة فقد شجع الأسبان على الاستيلاء على المرسى وهو ما كان في شتنبر (سبتمبر)، مقابل تخفيض الضغط الذي كان محاصراً على الحصون البرتغالية وخاصة مرسى البريجة (الجديدة حالياً)، وذلك من أجل كسب التأييد والدعم ليتظاهر بحسن النية الطيبة اتجاه المواقف<sup>2</sup>.

**العلاقة السعدية البرتغالية في عهد محمد المتوكل ابن عبد الله بن حمد الشيخ السعدي (الغالب الله) 982هـ، 1574م / 986هـ، 1578م):**

تولى العرش بعد وفاة والده مباشرة حيث تمت مبايعته من طرف أهل الحل والعقد ومشايخ الطرق الصوفية وأعيان البلاد وحتى شيوخ القبائل، لكن أعمامه كانوا عقبة ونقطة سوداء في طريقه فقد أنكروا وتجاهلوا سياسة التقارب والاتصال بالقوتين (الإسبانية والبرتغالية) التي كانت على حساب الصداقة التركية، فقد خاض عدة معارك وعندما فشل في استعادة مراكش من يد عمه عبد الملك فقد كان يلاحقه أحمد المنصور<sup>3</sup>.

حيث دارت بينهما معارك طاحنة كان النصر حليف المنصور وهزيمة المتوكل كعادته، وهنا فكر هذا الأخير في الفرار إلى جبل درنة ثم دخل مدينة طنجة طالباً النجدة من البرتغال لكنه فوجأ بأمر ألقاه وهو علمه بأن عبد الملك أعطى أوامر بتضييق الخناق عليه وعدم تقديم له أي مساندة مهما كان نوعها والعمل على

1- عبد الفتاح مقلد الغنيمي، المرجع السابق، ص 152.

2- محمد بيل ملين، السلطان الشريف الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب، تر: عبد الحق الزموري وعادل بن عبد الله، ص 46.

3- أبو القاسم الزباني، البستان الطريف في دولة أولاد مولاي الشريف، درا وتح: رشيد الزاوية، المملكة المغربية: إقليم الراشدية، ص 35.

محاربته والقضاء عليه نهائياً، فطلب العون من ملك البرتغال دون سيستيان<sup>1</sup> (Don Sebastian) الذي عمل على إعادته إلى عرشه، وهكذا فقد ظل المتوكل يبحث عن سند له مهما كان نوعه<sup>2</sup>.

اتسمت علاقته مع البرتغال بالصراع والثورة على الحكم بسبب وجود من يشاركه في الحكم من أبناء العم وابن أخيهما إلا أن فترة حكم هذا السلطان كانت قصيرة جداً إلى أن توفي في معركة وادي المخازن<sup>3</sup>.

**العلاقة السعدية البرتغالية في عهد أبي مروان عبد الملك السعدي (983هـ، 1575م/ 986هـ، 1578م):**

كان أبو مروان عبد الملك السعدي مقيماً بسجلماسة وهو ابن أبي عبد الله الشيخ السعدي، فر مع أخوه أحمد المنصور بعد وفاة والدهما إلى تلمسان وهذا خوفاً على أنفسهما، ثم انتقل بعد مدة إلى الجزائر وبعدها اتخذ الطريق البحري وسار نحو مدينة القسطنطينية، وبعدها سار إلى المغرب واستولى عليها بمساعدة من السلطان سليم بن سليمان العثماني وزادت قوته البحرية حتى أصبح من رياس البحر<sup>4</sup>، وهذا الأمر هو الذي أقلق ملك البرتغال سيستيان فالتجأ إلى قبول عرض محمد المتوكل والترحيب به وذلك في شوال 985هـ، ديسمبر 1577م، وكان طلب محمد المتوكل من سيستيان هو مساعدته على العودة إلى الملك مقابل التخلي له عن بعض الأراضي الزراعية لكن هذا كان دون جدوى، وهو عدم قبول الملك البرتغالي بأمر محمد المتوكل وهذا ما أدى إلى حدوث معركة بين سيستيان وأبو مروان<sup>5</sup>.

تعتبر المعركة التي وقعت سنة 1578م كمعركة فاصلة بين سيستيان وأبو مروان وتسمى هذه المعركة بمعركة وادي المخازن التي شن فيها النصارى غارتهم على السواحل وكان النصر حليف المسلمين، بينما البرتغاليين فقد أصيبوا بالخيبة والفشل وتوفي القائدان سيستيان وأبو مروان السعدي الذي أخفى أمر وفاته حتى

1- أحمد بوشرب، المرجع السابق، ص 117

2- المرجع نفسه، 164.

3- ليقي بروقصال، مؤرخو الشرفاء، الرباط: دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر، ص 78.

4- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، المرجع السابق، ص 52.

5- سمراء بحري، سميرة بشير شريف، معركة وادي المخازن وتأثيرها على أوضاع المغرب الأقصى (986هـ-1578م/

1012هـ-1603م)، مذكرة لنيل شهادة الماستر في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجليلي بونعامة- خميس مليانة،

2015-2016، ص 51.



لا يتأثر المسلمون بخبر وفاته، كما توفي كذلك محمد المتوكل وأصبح الملك من نصيب أحمد المنصور الذهبي<sup>1</sup>، لقوله تعالى: " رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ"<sup>2</sup>.

نقول عموماً أن العلاقات السعدية البرتغالية في عهد أبو مروان عبد الملك السعدي التي دامت أربع سنوات قد امتازت بالصراع، وكثرة الحروب بين المغرب الأقصى والمملكة البرتغالية، وقد راح نتيجة هذه الحروب العديد من الناس من كلا الطرفين<sup>3</sup>.

### العلاقة السعدية البرتغالية في عهد أبي عبد الله محمد الشيخ السعدي (984هـ-1576م/986هـ-1578م):

وهو الأمير السعدي الخامس والقائد الأعظم الذي حقق انتصاراً كبيراً في تاريخ المغرب، ولد عام (951هـ/1541م) تركه والده وهو ابن الستة عشر سنة الذي كانت وفاة والده عام 1557م. له أخ يسمى عبد الله الغالب، تقلد منصب الحكم وعمره خمسة وثلاثين سنة التي تعتبر فترة قصيرة وقد قضاها في مطاردة ابن أخيه محمد المتوكل<sup>4</sup>.

لقد شهدت فترة حكم هذا الملك الكثير من الأحداث المهمة والبارزة في تاريخ المغرب الأقصى، لكن بالرغم من كل ما قام به أنه لم يستطع أن يستقر في مراكش وأخذ يطارد ابن أخيه المسمى محمد المتوكل الذي فشل في استرجاع عرشه وهو الأمر الذي دفعه للاتصال بالمملكتين إسبانيا وخاصة البرتغال حلفائه القدامى لكنه، لم يتلقى أي مساعدة من الإسبان لأنهم كانوا منهمكين في حروبهم في الأراضي الهولندية والكشوفات الجغرافية لذلك فكر في البرتغال، حيث بعث رسالة إلى علمائها يبين لهم فيها ما يريده وهو استرجاع ملكه في العرش السعدي، لكنه لم يلقى أي جواب من تلك القوات، وهذا لأن البرتغاليين وحتى الإسبانيين كانوا متخوفين من علاقة عبد الملك مع الأتراك<sup>5</sup>.

1- جلّول بن قمار، المرجع السابق، ص 51.

2- سورة الأنبياء، الآية 89.

3- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، المرجع السابق، ص 87.

4- عبد الفتاح مقلد الغنيمي، المرجع السابق، ص 165.

5- عمار بن خروف، العلاقات بين الجزائر والمغرب (923هـ-1517م/1069هـ-1659م)، رسالة لنيل الماجستير

في التاريخ، دمشق، 1983، ص 210.

اقترح الملك السعدي على ملك البرتغال سيبيستان من أجل الاتفاق معه والدخول في صفه وأن يترك للبرتغاليين الموانئ المطلة على البحر الأبيض المتوسط شريطة أن يقف معه على استرجاع ملكه كما تعاون هذا الأخير مع الملك التركي وأعطاه العديد من الهدايا، لكن القائد التركي لم يرض بذلك وهو رمضان باشا فأرسل، قواته للتدخل في شرق المغرب، وهنا طلب عبد الملك من السلطان العثماني مراد الثالث التدخل لصالحه وعزل رمضان باشا، واستمرت المعركة بين الملك وابن أخيه حيث أن الملك كان قد تلقى مساندة من السلطان العثماني، لكن عندما أحس بانتهاء أمرهم وضعف قوتهم أصبح لا يأخذ بنصائحهم<sup>1</sup>.

لقد استطاع الملك الانتصار على قوة محمد المتوكل وذلك بدعم القوة التركية له لكن وجد في طريقه عائق العدو الإسباني والبرتغالي، ومن هنا نقول أن العلاقات السعدية البرتغالية في عهد عبد الله محمد الشيخ السعدي قد اتسمت بالصراع والعداء وعدم الاستقرار والتوتر، حيث اتخذ سياسة مضادة للبرتغاليين على عكس أخوه محمد عبد الله الغالب بالله ومحمد المتوكل الصديقان الحميمان للبرتغال<sup>2</sup>.

#### العلاقة السعدية البرتغالية في عهد أحمد المنصور الذهبي (986هـ-1578م/1012هـ-1603م):

اتصفت العلاقات البرتغالية السعدية في عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي الذي يعتبر من أعظم ملوك الدولة السعدية والذي بوع خلال معركة واد المخازن (الأباطرة الثلاثة)، ثم جدد حكمه بمدينة فاس<sup>3</sup>.

كان المنصور<sup>4</sup> رجلاً مهيباً لا يقدر شخص على مواجهته ولهذا كان أولى وأحق بسياسة الملك حيث اتسمت العلاقات في عهد المنصور الذهبي بالصراع الدائم وكان النصر حليف المسلمين (المغاربة) وخاصة في

1- عبد الفتاح مقلدي الغنيمي، المرجع السابق، ص 167.

2- المرجع نفسه، ص 170.

3- أبو شرب، المرجع السابق، ص 117.

4- أحمد المنصور الذهبي (986هـ/1578م - 1012هـ/1603م) هو المولى أحمد بن محمد الشيخ بن محمد بن عبد الرحمان الملقب بالقائم بالأمر وقد لقبه رجال الحل والعقد بالذهبي تيمناً له بالنصر في معركة وادي المخازن ولد عام 956هـ/1549م، وتربى بمدينة فاس. حيث أخذ يدرس العلم عن مدارسها ثم أقام في بلاد الجنوب حيث سجل ماساة في إقليم سوس كان شاعراً من أعظم الشعراء ذو عقل فطن وقوي ومقاوم مغوار وكان له ديوان اسمه (ديوان الشرفاء)، كانت بيعته في جمادى الأولى سنة (986هـ/1578). وقد تعلم القرآن على يد محمد بن يوسف الترغي والنحو على يد أبي العباس القدومي، والحديث والسياسة، وفهرسة صغيرة عد فيها مقروآته. ينظر: محمد نبيل ملين، المرجع السابق، ص 55، أبو عبد الله، نشر الثاني، ص 73.

معركة واد المخازن ويعود هذا النصر إلى قوة وشجاعة أحمد المنصور الذهبي قائدها وكذلك الدعم الذي تلقاه من السلطان العثماني<sup>1</sup>.

أما فيما يخص المعاهدات والاتفاقيات التي كانت بين أحمد المنصور والهولنديين وذلك بشأن التجارة والملاحة غير أن هذه الاتفاقيات والمعاهدات قد جرت عن إعطاء دور ايجابي وخاصة في مدينة سلا، التي خصعت لسيطرة الدلائيين لكن أحمد المنصور استطاع أن يحسن من وضعية هذه المدينة وذلك بإتخاذ سياسة مغايرة لسياسة التي كان يعتمد عليها جيرانه لهذا يعتبر عصر المنصور الذهبي عصرا قائما بذاته<sup>2</sup>.

1- لقي بروفنسال، المرجع السابق، ص 78.

2- جلال يحيى، المغرب الكبير عبر العصور الحديثة وهجوم الاستعمار، ج3، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1981، ص 46.

المبحث الثالث:

معركة وادي المخازن: (986هـ / 1578م) (معركة القصر الكبير)

تعد معركة وادي المخازن أو كما هو معروف معركة الملوك الثلاثة أو الأباطرة الثلاثة من أهم المعارك في تاريخ المغرب، فهي تمثل حدثا بارزا ومهما له استراتيجيات وخلفيات أثرت على المغرب الأقصى، وعلاقاته الدولية خلال نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، فقد وضعت حدا للأطماع الأوربية بالمغرب الأقصى، ومن الأسباب الرئيسية لهذه المعركة نذكر:

النكسة التي أصابت العثمانيين وذلك بانحزامهم في معركة ليبانتوا (Lepanto)، والتي تعتبر من المعارك التي عملت فيها القوات الأوربيين بقيادة "جوان" النمساوي الأصل في السابع من أكتوبر سنة (979هـ / 1571م) من إلحاق هزيمة نكراء بالأسطول العثماني<sup>1</sup> الذي كان تحت إمرة "علي باشا" وقد أكسب هذا الانتصار الواسع الأوربيين المتحالفين ثقة بالنفس ورقة في العزيمة فأخذوا يتطلعون إلى تحقيق انتصارات أخرى، عملا بقاعدتهم التي تنص على حد أن استأثر به الصليب واغتصب من الهلال لا يرد، وإن كل ما حازه الهلال أو ضمه إليه وأخذه منهما تتحتم إعادته، وهو ما أسموه سياسة الاسترداد<sup>2</sup>.

إضافة إلى تخرشات الدون سيبيستيان بالمعركة قبل وقوعها والذي يعتبر ولي عهد البرتغال ووريث عرش سلالة "أفيز" الحاكم من العشرين من شهر جانفي سنة 1554م.

إن سبب عدم بقاء المتوكل على الملك هو الصراع ضد الخصمان عبد الملك وأحمد حيث لم يمكن إلا عاما وتسعة أشهر حتى غضب عليه أولاد عمه عبد الملك وأحمد الذهبي فتوجهوا إلى أمير المؤمنين العثماني صاحب القسطنطينية وطلب منه عبد الملك أن يعطيه جيشا قويا عدة وعتادا ليتمكن من السيطرة على ملك مراكش فغلب ابن عمه مولاي محمد بن مولاي عبد الله وفعلا تمكن من أخذ الملك الذي أخذه منه ابن أخيه

1- كانت معركة بالقرب من "ليبنته" حيث إشتبكت فيها القوات العثمانية مع الأساطيل المسيحية مدة تقدر بثلاث ساعات، وقد انتهت هذه المعركة بانتصار المسيحيين الذين غنموا 130 سفينة عثمانية وأغرقت وأحرقت 94 سفينة وغنموا 300 مدفعا وقاموا بأسر 30 ألف وهكذا فقد كان هذا النصر فرحة وعيدا عارما في كل تراب أوربا. ينظر: محمد فريدريك الحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح: إحسان حقي، بيروت: دار النفائس، ط1، ص 1981، ص 111.

2- عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج3، الجزائر: منشورات دار مكتبة الحياة، ط2، 1950، ص98.

محمد باعتباره الأكبر فيهم سنة<sup>1</sup> كما تقضي العادة في البلاط السعدي، وقد اتصل عبد الملك السعدي بالسلطان العثماني بعد أن بشرته مسعودة الوزكيتية<sup>2</sup> وقد فرح السلطان بهذا الخبر وطلب منها الاستعانة بحاكم الجزائر، فقد استجاب هذا الحاكم لطلبهما ودعمهم بقوة عسكرية ضخمة والتي تم تقديرها بخمسة آلاف (5000) من الأتراك وألف (1000) من الزواويين وثمان مئة (800) من الصبايحين، إضافة إلى ستة آلاف (6000) فارس وإثنا عشر (12) مدفعية<sup>3</sup>.

طلب عبد الملك من رئيس الترك ليتمكن من الوصول إلى البلاد لأنهم كانوا جند أبيه فأرسل معه حصّة، وساروا حتى وصل إلى الركن وذلك في 08 ذي الحجة 983هـ، 09 مارس من سنة 1576م من أحوار فاس، وعندما سمع بأمر أخيه المتوكل خرج لمقابلته فتلقى الفريقان ودارت حرب، قام جند الأندلس بقيادة سعيد الرغالي بالالتحاق بجند عبد الملك وقام بمكاتبة حاشية المتوكل، وفي أثناء المعركة سمع المتوكل بأن القائد جرمون وأولاد عمران تركوه، وصل إلى المتوكل، وأنه من أكبر قواته وأكثرهم ثقة لديه، فجزع المتوكل وانهزم بجيشه، وأشعل بها النار، ثم توجه فاراً نحو مدينة فاس الجديدة ثم خرج إلى مراكش فالتحق به القائد ابن شقراء بمساعدته، ولما انهزم تقدم عمه أبو مروان إلى فاس سنة (983هـ / 1575م) من باب الفتوح<sup>4</sup>.

عندما أرسل مولاي عبد الملك جيش الجزائر، جهز جيوشه من فاس وكان هذا الجيش مكون من زواوة وقليل من الترك فكشرت الغنائم والأموال وأقام حاميات ومحلة، كان مولاي محمد (مولاي عبد الملك) قد وصل إلى مدينة مراكش فجمع جيشه وحشده جنوده وأقام محلة من أهل مراكش، كما أرسل إلى أهل سوس الأموال هنا التقى الجيشان في واد الريحان وسمي هذا اليوم "بواد شراط" في ربيع الثاني سنة 984هـ جويلية 1576م، ونزل مولاي عبد الملك على قدميه وتقدم للمواجهة فاقتتلا الفريقان وإقتالا عنيفا، فكان الحظ

1- عبد الرحمان بن عبد الله بن عمران بن عامر، تاريخ السودان، باريس، 1981، ص 208.

2- أحمد بن محمد المقرئ، روضة الأسى العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيتهم من أعلام الحضيرتين مراكش وفاس، الرباط: المطبعة الملكية، ط2، 1983، ص 155.

3- عبد الباسط قلفاط، المرجع السابق، ص 44.

4- أبو عباس أحمد بن خالد الناصري، المرجع السابق، ص 64-65.

حليف مولاي محمد وخسارة أهل مراکش تاركين ورائهم عدتهم، ولما دخل مراکش بايعه أهلها ثم توجه إلى جبال سوس لمواصلة القتال<sup>1</sup>.

طلب مولاي عبد الملك من أخيه أحمد بملاحقة و مطاردة ابن أخيه المتوكل الذي كان يلاحقه أينما ذهب وإلتقى معه حيث وقعت عدة معارك حربية بينهما أهمها أساطس ومعركة تينزرت<sup>2</sup> التي كانت سنة 984هـ - 1576م<sup>3</sup>.

التي انتصر فيها أحمد المنصور، اشتد الصراع بينهما وقدر عدة جيوش وعشائر مولانا أمير المؤمنين ذلك اليوم ما يناهز ألف وثلاثمائة (1300) ما بين عساكر النار والأسل، أما مجموع جنود العدو فكانت تضم ستين ألفا (60000) ما بين المدونة والخوارج، فأقام نظاما محكما أحاطه على الظهر بسياج من النار ودخل الخصمان في صراع مميت وطاحن والذي انتهى في نهاية المطاف بإخزام المتوكل ومن معه وقائده ابن ويسعدن وبقية جموع الخوارج والحشود، فقدر عدد القتلى في المعركة حوالي أربعة آلاف، وقيل أنه عثر على رجالان مقتولان من جيش النار حدثي الفقيه القائد أبو الحسن علي بن منصور الشيطاني الذي كان شاهد عيان على ما وقع أثناء المعركة التي نشبت<sup>4</sup>.

1- المجهول، المرجع السابق، ص ص 53- 54.

2- تنصر: تتررت كما يسميها مرمول كربخال، هي عبارة عن مدينة تقع على بعد نحو عشرة أميال من أمريكو فوق أحد التلال، ومشملة مع ثلاثمائة دار وعدد قليل من الصنائع، سكنها ذو طبيعة خشنة، لا يملكون كروما ولا حدائقا، ولا يزرعون غير الحبوب، إلا أنهم يملكون عددا غير قليلا من الماشية، وتقع هذه المدينة في منتصف الطريق بين مدينة فاس وجبال غمارة، وذلك ما يجعل أهلها بخلاء بفضاء إلى أقصى حد. ينظر: حسن بن محمد الوزان الفاسي، المرجع السابق ص 308.

3- حسن بن محمد الوزان الفاسي، المرجع نفسه، ص 308.

4- أبي فارس عبد العزيز الفشتالي، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء، تح: عبد الكريم كريم، الرباط: مطبوعات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية والثقافية، ص ص 32، 33.

ومن الأسباب المباشرة لمعركة وادي المخازن نذكر كذلك فقدان البرتغاليين للكثير من مستعمراتهم. فقد اضطرت البرتغال إلى ترك بعض المدن وإخلائها كأسفي سنة 1545م، ثم أصيلا التي كانت سنة 1549م، والقصر الصغير سنة 1550، فلم يبقى بيد البرتغاليين سوى مدينة طنجة وكذلك مدينة سبتة<sup>1</sup>.

ولد سيبيستان ولي عهد البرتغال بعد وفاة أبيه الأمير جان وريث عرش سلالة "أقيز" الحاكمة في العشرين من جانفي 1545م.، فقد اتجه سيبيستان الذي بلغ سن الرشد عام 975هـ - 1568م ملك البرتغال وسائر أنحاء الامبراطورية البرتغالية تحت اسم جلالة الملك ضون سيبيستان الأول وقد كان عمره أربعة عشر عاما الذي خلف جده الضونا كترينا، حيث سعى وعمل على تقوية وترتيب وتنظيم جيوشه، وقد انتشر نبأ الحملة العسكرية الضخمة بسرعة البرق على مدينة طنجة داخل المملكة حتى وصلت أخبارها في كل أنحاء بلاد المغرب، وعندما علم المولى عبد الله الغالب بالأمر أخذ كل احتياجاته وتدابيره اللازمة من استعدادات وإمكانات من أجل مواجهة الغزو المرتقب، في اعتقاده أن الملك البرتغالي يريد لاستلاء على ميناء أغادير.

لقد إنتهج المتوكل سياسة أبيه للتقرب من الدول المسيحية كما عقد عدة اتفاقيات مع إليزابيت، وعندما وقع المتوكل اتفاقية الانجليزية التجارية، لأنهم كانوا من التجار الأجانب منذ زمن بعيد يبيعون للمغرب مواد الحرب، وفيما يرجع اسبانيا والبرتغال ورد فعلها من مساعدة العثمانيين للمولى عبد الملك ضد المتوكل فرسالة. (Gesiani) (GiovaniBaista) والتي أرخت يوم 24 مارس 1576م إلى فيليب الثاني شرحت أن ملك إسبانيا عليه جمع القوى في الموانئ المجاورة لإفريقيا، وأن رمضان باشا والمولى عبد الملك وأخاه المولى أحمد يريدون مواجهة المتوكل، الذي سيهزم أمام الأتراك، ومن هنا يمكن أن يطلب المتوكل النجدة من فيليب الثاني، وتصبح الفرصة لتدخل ملك اسبانيا لطرده الأتراك<sup>2</sup>.

لكن فيليب الثاني كان منشغلا بالأراضي المنخفضة وبحروب الدينية الدائرة بين الكاثوليك والبروتستانت المنذر بالخطر الأول تحت زعامة فيليب الثاني والبروتستانت بزعامة إليزابيت، فمنعه من الاستجابة، حيث جاء

1- سبتة: بلفظ الفعل الواحدة من الأسباب وهي بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها أجود مرسى على البحر وهي على بئر البربر تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق الذي هو أقرب ما بين البر والجزيرة، وهي مدينة حصينة تشبه المهديّة، التي بإفريقيا على ما قبل لأنها على ظهر سال تعرضت هي الأخرى للاحتلال البرتغالي 1415م، ينظر: الامام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت ابن عبد الله الحموي الرومي البغدادي، المرجع السابق، ص 183.

2- عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 98.

في الرسالة التي وجهها ملك البرتغال إلى سفيره (Don Duarte de castelaranco) من الضروري التدخل لوقف الزحف التركي والعمل على الحد من نفوذه، ومنعهم من الاستلاء على الموانئ المغربية، أما نص الرسالة الثانية هو اغتنام فرصة أوضاع المغرب المتدهورة والمزرية والعمل على شن حملة مشتركة لاحتلاله. وخاصة النداءات المتكررة المبعوثة من طرف ملك البرتغال دون سيبيستان<sup>1</sup>.

دخل العثمانيون في المغرب فمدد رمضان باشا عبد الملك بجيش ضخم فأحرز بذلك انتصارا ضد المتوكل في معركة الركان، فوصل إلى مراكش بعهد الغالب بالله في صورة تاجر ومعه أحجارا من الياقوت ليصل إلى مكانة أشياخ المعتصم لإيصال كتبه، رجع إلى فاس فعين المتوكل في خدمته اشتعال الحرب<sup>2</sup>، لأنهم كانوا حاقدين على مولاي عبد الله وولده مولاي محمد لخيانته لهم فأصبحت بذلك مدينة فاس الطريق المفتوح أمامه، ثم توجه المعتصم بالله إلى مدينة مراكش التي كان المتوكل قد هرب منها نحو سوس<sup>3</sup>، ومنذ استقلال واستقرار الأوضاع لصالح الملك الملقب (بالمعتصم بالله)، بدأ يعمل من أجل إعادة الأمن والهدوء إلى بلاد المغرب، دون أن يغفل على ملاحقة المتوكل مهياً القوات المسلحة لمحاربته من أجل استرجاع عرشه وقد خاص ضد عميه أربعة وعشرين معركة خلال سنتين والتي انهزم فيها جميعها<sup>4</sup>.

لقد كاتب عبد الملك السعدي المعتصم الملكة الإنجليزية إليزابيث بتولية السلطة رغبة منه في التقارب الانجليزي ولو بصورة جزئية، وأكد لها استعداداته لتلبية جميع متطلباتها: (إلى السلطة المعظمة زبيبة بنت السلطان المعظم كتناء إليك من حضرتنا العلية مراكش وبموجبه إننا نعرفك أن الله تبارك وتعالى مكننا من ملك

1- دون سبستان: الذي ساعد مولاي محمد بن عبد الله السعدي باسترجاع ملكه من عمه عبد الملك السعدي وقاد هذا الأخير الجيوش البرتغالية لمحاربة المغاربة والأتراك في معركة وادي المخازن التي قتل فيها هو ومولاي محمد سنة 1528م هو ملك البرتغال الذي قتل في معركة وادي المخازن وذلك سنة 1578م، ينظر: محمد الغساني الأندلسي، رحلة الوزير في افتكاز الأسير (1690م-1691م)، لبنان: دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1، 2002، ص 173.

2- عبد العزيز الفشتالي، المرجع السابق، ص 47.

3- سوس: قرى كبيرة وعمارات متصلة ببعضها البعض بها فواكه كبيرة كالتين العنب، السفرجل، الرمان، تكثر فيها صناعة الأكسية الرفيعة، رجالها ونساؤها سمر، في نسائهم جمال فائق وحسن بارع، وهي بلاد حنطة وشعير وأرز وأهلها من البربر المصامدة، لباسهم الأكسية من الصوف إلتفاف على رؤوسهم الشعور الكثير ومدينة السوس على البحر المتوسط أسسها الفنيقيين نحو 09 ق.م وإسمها سوسة، ينظر: ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، تح: عبد المنعم عامر، ج1، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ص 229.

4- عبد الكريم كريم، المرجع السابق، ص 99.



والذي، واستوليت على جميع بلاده، فلتعرف أننا على محبتك وكلما يعرض لك في بلادنا من الأغراض فإنه مقض على ما يوافق غرضكم ومرادكم إضافة إلى استدعائه التاجرين الانجليزيين وهما: John Bampton et John Wiliams للتأكيد على احترام بنود الاتفاقية المبرمة سابقا مع المغرب والانجليز وأماله أن تزدهر التجارة ويتم تغيير طريقها التجاري وينقلهما إلى المشرق الاسلامي عبر الأراضي المغربية عوضا عن نقلها عن طريق ألمانيا وإيطاليا<sup>1</sup>.

وبعد إلهاء المتوكل إلى شمالي المغرب عرف ما كان يخطط له الملك البرتغالي لغزو المغرب فقام بإرسال له نبيلًا برتغاليا كان أسيرا عند اسمه (Don Antonio de Punha) لمساعدته وتوفير الحماية له، ثم انتقل إلى مدينة سبتة التي ظل بها أربعة أشهر ثم إلى طنجة في انتصار مجيء (دون سيبيستيان) على رأس القوات العسكرية فأرسل من هناك كتابا إلى أهل المغرب ليصدقوه على ما قام به إلا أنهم لم يبالوا به وردوا عليه بخطاب طويل وهام<sup>2</sup>.

لقد خضعت البلاد للمعتصم وذلك عندما إلتجأ إلى طنجة عند البرتغال فلم تبقى بذلك سوى منطقة الغرب التي كانت تجمع القصر الكبير، وأصيلا، ومدينة العرائش، الخاضعة لحكم عبد الكريم بن تودة استنجد بالبرتغاليين مقدما لهم أصيلا التي كانوا قد احتلوها واستولوا عليها من قبل بن تودة<sup>3</sup>.

أما عن الحديث عن قوات الجيش وعدد الفرق البرتغالية والمغربية فلقد تعددت الروايات واختلفت إختلافا كبيرا وملحوظا وبدرجات متفاوتة حول عدد فرق الجيش وقد تناولت بعض المراجع المغربية هذه النسب المتفاوتة، فالنصارى يقولون أن عدد الجيش الذي كان مع سيبيستيان ثمانية عشر ألفا (18000)

- جنس البرتغال إثنا عشر ألفا (12000).
- جنس الإنجليز ثلاثة آلاف (3000) أتوه مدة الصلح والمهادنة التي كانت بينه وبينهم.
- جنس اسبانيا ثلاث آلاف (3000) أمده بها فليب سكوند ابن أخته.

1- عبد الكريم كريم، المرجع نفسه، ص 100.

2- المرجع نفسه، ص 102.

3- وهو عبد الكريم بن تودة، صهر المتوكل الذي كان يحكم منطقة الغرب، ولما إلتجأ المتوكل إلى مدينة طنجة لطلب المساعدة البرتغالية فافوض ابن تودة البرتغاليين من أجل إحتلال مدينة أصيلا وقد تم ذلك فعلا واتخذ البرتغال نقطة الهجوم على المغرب قبيل معركة واد المخازن. ينظر: عبد العزيز الفشتالي، المرجع السابق، ص 114.

والصحيح ما هو مقرر عند المسلمين من العدد المذكور<sup>1</sup>. وذكر أبو عبد الله الفاسي في مرآة المحاسن ما نصه: وعظيمهم سيستيان ملك البرتغال، وإحتشدت أمم من النصرانيين يقال أن مجموعهم كان مائة ألف وعشرين ألفاً، وأقل ما قيل في عددهم ثمانون ألف مقاتل، وضربوا محلاتهم بالفحص على أقل من مسيرة يوم من مدينة القصر، وكانت أصيلاً قد تصيرت إليهم قبل شهر. فعاش أهل القصر الهلكة لقرب العدو منهم وقوته التي لا طاقة لهم بها.<sup>2</sup>

أما عن عدد قوات الجيش المغربي فكانت تشكيلهم من 25 ألف فارساً (25000) وكان يدعمهم ستة وثلاثون ألف (36000) والنصارى مثلهم مرتين أضعافاً كما أنهم قاموا بإرهاب المسلمين بمكايد منها، جعلوا مزارق مسمرة بمسامر في القراريط الفارغة المحتوى، حتى يعتقدون أنها فعلاً خيولاً كثيرة وكانت لهم خيول أكثر من عشرة آلاف (10000)<sup>3</sup>، وحاول محمد تبرير أعماله فقال فلا والله ما كان ذلك مما على هوى ولا على طريق خارج على سبيل الحق وطريق الشرع وإنما على العكس مبنى على طريق الشرع وسبيل الحق وسنستدل على هذا بالأدلة الدامغة التي تثبتته وتترهه، أملاً منهم تقديم المساعدة ضد عمه<sup>4</sup>، وقد أبدى المتوكل في رسالة الموجهة إلى العلماء جملة من العبارات والقرارات المسوغة كالتالي:

قال: " ما استرحت بالنصاري، من عمدت النصرة من المسلمين" وقد قال العلماء: " إنه يجوز للإنسان أن يستعين على غضبه حق ملكه بكل ما أمكنه"، فنص البيعة من واجبنا الشرعي دون وجه حق وأن يقف العلماء وكافة الشعب بالالتزام للحاكم، دون الخروج عن طاعته لكن المتوكل هدد العلماء بحد السيف والعقاب الشديد مستشهداً بقوله تعالى: "فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله"<sup>5</sup>

والحكم حسب التقاليد السعدية يرجع إلى أكبرهم سناً وقد ولي الجد الأكبر محمد الشيخ لابن المتوكل عبد الله الغالب بولاية العهد كونه أكبر سناً، لكن ما وقع هو أن الغالب خالف ما اتفق عليه وقام بتسليم الحكم لابنه، وهذا ما عبّر عنه العلماء عندما قال أنه لم يجد العون من المسلمين فاستنجد بالنصاري "كما قاتل مع

1- محمد الغساني، المرجع السابق، ص 77.

2- الإمام أبي حامد محمد العربي بن يوسف الفهري، المرجع السابق، ص 146.

3- مجهول، المرجع السابق، ص 61.

4- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، المرجع السابق، ص 70.

5- سورة البقرة، الآية 279.

المسلمين فقبل له أنبأ سيفك هذا وأنت مع المسلمين في أربع وعشرين معركة لم تثبت له فيها أية راية" فأبي تحسن وشؤوم حل بديار الروم وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لن تغلبا هذه الأمة ولو اجتمع عليها من الكفار ما بين الدنيا" وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "فسيقاتل آخر هذه الأمة لدجال"<sup>1</sup>، وللنظر في عمق المعركة قام الطرفان بتبادل المراسلات، وهذا ما ذكره مجهول مؤلف الدولة السعدية التكدمارتية أنه كتب المعتصم للملك البرتغال بعد نزوله بمدينة أصيلا: "إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك وجوازك البحر إلى عدوة المسلمين، فإن ثبت فإنك فعلا نصراني حقيقي وشجاع، أما الرواية الثانية فإن رجعت إلى البلاد وحقرت بعض الرعية قبل أن يقابلا أميرا مثلك، فأنت يهودي بن يهودي"<sup>2</sup>.

فقد قاوم عبد الملك المرض بشدة، وعند بدأ المعركة وبدأ كل واحد ينتظر الإشارة خاطب عبد الملك جيشه وأخذ يذكرهم بوعد الله للمجاهدين الصابرين وطلب منهم قراءة بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى: "الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ۖ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْأَنْبِيَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ" <sup>3</sup>.

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ" <sup>4</sup>.

"يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ" <sup>5</sup>.

اندلعت معركة وادي المخازن في يوم الاثنين آخر جمادى الثانية 986هـ، الرابع من شهر أوت سنة 1578م عند الظهر<sup>6</sup>، وعند اشتداد الصراع بين الطرفان.

1- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، المرجع السابق، ص 76، 77.

2- مجهول، المرجع السابق، ص 59.

3- سورة الحج، الآية 40.

4- سورة محمد، الآية 07.

5- سورة التوبة، الآية 32.

6- محمد الصغير الأفراني، المرجع السابق، ص 72.

وفي هذه الأثناء توفي قائد الجيش المغربي عبد الملك<sup>1</sup>، لأنه قد احس بتدهور صحته بسبب مرض الشديـد الذي أصيب به أثناء طريقه إلى مدينته مراكش فرجع إلى خيمته ووضع سبافته على فمه كأنه يطلب منهم كتم سره حتى لا يصيب ذلك ويحط من معنويات الجيش ولا يؤثر سلباً على سير مجريات المعركة<sup>2</sup>، وهذا ما أكده مؤلف كتاب تاريخ الدولة السعدية المجهول ما قاله "ولما اشتد مرض السلطان جعلوه في حجرة على رؤوس الناس، يصلح أحوال الصفوف ويحرص الناس ويشير إليهم بيده وأمرهم أن يحذروا أفواه الأنقاض وأرسل أخاه مولاي أحمد إلى ملاقة الخيل، وقد كشف رأسه، وترحل وأبدى وأعاد وأبلى بلاء حسناً، مع المسلمين وطال القتال وكان القائد الطائع"<sup>3</sup>، ولما اشتدّ مرض الأمير السلطان وخرجت روحه والناس يقاتلون لم يظهر موته فأخذ يطلب الماء لأن السلطان يريد أن يشرب، وهذا كي لا يكتشفوا أمره ويوهمهم لكن السلطان كان ميتاً، فلم يطلع على خبر موته سوى حاجب رضوان العليج الذي كتم خبر موته<sup>4</sup>، وعندما علم المنصور، بوفاة أخيه أخذ يفكر في مكيدة فمال بمقدمة جيشه على مؤخرة جيشه مع مؤخرة العد وكان جيشه إذا أحرقهم شر البندق ولفحت وجوههم نار البارود تقهقروا يتدرك بعضهم بعض حتى يتدرك جميعهم بأمر المؤمنين، وقد أصيب أيده الله بجروح كبيرة ومات فرسه كما أصيب في صدره<sup>5</sup>.

لقد تكبد العدو خسائر فادحة وجسيمة حيث تفرقت هذه الصفوف، ومات الكثير من الجنود ومنهم من هاجروا ومنهم من بقوا على قيد الحياة اضطروا إلى الهجرة ومنهم من ماتوا غرقى أكلهم البحر لأنه كان في حالة جزر أما البقية القليلة قد أسر وفي هذا الاطار يذكر عبد العزيز الفشتالي قائلاً: " وناهيك بيوم أحلى على

1- هو أمير المؤمنين عبد الملك بن محمد الشيخ بن القائم بأمر الله السعدي قائد اعظم انتصار في تاريخ المغرب - (معركة النصر الكبير)، وهو الأمير السعدي الخامس من سلاطين السعديين، وقائد أعظم انتصار في تاريخ المغرب من الفتح الاسلامي من العصر الحديث، ولد عام (951هـ / 1541م) وكان عمره وقت وفاة أبيه 16 سنة ستة عشر عاماً عام 1557م، وقد لقب بلقب الفازي في سبيل الله قبل أن يلقب بالمعتصم، قيل أن سبب وفاة عبد الملك السلطان يرجع إلى تسميمه من قبل الأتراك، وأن بعض القادة قاموا بملاحقته بعك مسموم (لعبد الملك) تعجلاً في قتله، لكن هذا الطرح غير منطقي. ينظر: عبد الفتاح مقلد الغنيمي، المرجع السابق، ص 175-186.

2- عزيز سامح ألتز، المرجع السابق، ص 257

3- مجهول، المرجع السابق، ص 61.

4- المرجع نفسه، ص 61.

5- أبي حامد محمد العربي بن يوسف الفاسي الفهري، المرجع السابق، ص 146-147.

ثلاثة ملوك موتى، ما بين مجندل وغريق وفائض النفس حتف الأنف وعن ثمانين ألف من المشركين ما بين قتلى وأسرى<sup>1</sup>.

ومن المشايخ الذين كان لهم الفضل الكبير في معركة الأباطرة الثلاثة الشيخ أبو المحاسن يوسف الفاسي، "كان الشيخ أبو المحاسن في ذلك اليوم في أحد الجناحين، وأظنه الميسرة، من عسكر المسلمين في مقابلة النصاري دمرهم الله، قال: "فوق في ذلك انكسار ترحزح به المسلمون عن مصافهم، وحملت عليهم النصاري، دمرهم الله، فثبت الشيخ وثبت من كان معه إلى أن منح الله المسلمين النصر، وركبوا أكتاف العدو يقتلون ويأسرون، والشيخ لم يتزلزل، ولم يلتفت لقتالهم منذ أن توجه إلى قتالهم حتى فتح الله عليهم"<sup>2</sup>.

وفي الأخير نذكر أهم نتائج معركة واد المخازن للطرفين: والتي سميت (عقاب من الله)

بالنسبة للبرتغال مقتل ملكهم وما آل إليه عرشهم بعده فبوفاته دخل البرتغال في صراع عنيف بسبب عدم وجود وريث أو أية وصاية لتولية الحكم، فلم تجد الأسرة إلا الكاردنال هنري (Hanri) المريض بالسل، الذي تولى حكم البرتغال وقد بعث إلى السلطان أحمد المنصور الهدايا والتي كانت متبادلة بينهم، هذا من جهة ومن جهة أخرى ترحيبه بطلبه المتمثل في تسليمه جثة الملك القليل سيستيان، كما ذكر النصاري نقلا عن النزهة أن عم الملك القليل سيستيان الكاردنال "هنري"، لما سمع بالكارثة وقلة العدد أباح الفاحشة الزنا لكافة الناس ليكثر التناسل ويتم تعويض ما خسره ثم قال: بأنه وقف عند بعض مؤرخي الافرنج الإنجليزيين من أهل جزيرة مالطة وقال بأنها كانت سبب هلاك البرتغال واضمحلال دولتهم وفقدانهم لكرسي السلطة<sup>3</sup>.

وعندما سمع البرتغاليين نبأ مقتل ملكهم سيستيان غضبوا غضبا شديدا، في حين السلطان أحمد المنصور الذهبي صاحب المعركة واد المخازن سنة 1578م، يبحث عن جثته سيستيان ليتأكد منها ثم يقوم بإرسالها إلى كتامة<sup>4</sup>.

1- عبد العزيز الفشتالي، المرجع السابق، ص 39.

2- أبو العباس أحمد بن خالد النصاري، المرجع السابق، ص 80.

3- المرجع نفسه، ص 85.

4- أبو القاسم الزباني، الترجمان الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، الرباط: دار المعارف للنشر والتوزيع، 1991، ص ص 70، 71.

أما بالنسبة للمغاربة فعرفت "معركة الفرقان": (غزوة بدر)<sup>1</sup>

لقد أعادت معركة وادي المخازن للشعب المغربي ثقته وأنفاسه ومكنته من تحسين أوضاعه في جميع الميادين الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ثم توجه نحو فاس ودخلها وكان ذلك يوم الخميس العاشر من جمادى سنة 986هـ-1578م، فأخذ في اصلاح أحوال البلاد والعباد وقام بترتيب الجيوش لكن أبناء عمومته عندما رأوا ذلك فروا هاربين خوفا من بطشه وقومه ونفوذه وسيطرته، وحتى أولاد إخوته تمكنوا من الفرار<sup>2</sup>، كما إزدهرت الحركة الفكرية والأدبية بعدما إنكشف غبار المعركة فبرز كُتّاب وأدباء وعلماء فطاحلة أمثال: عبد العزيز الفشتالي، والمقري وابن القاضي<sup>3</sup>، وقد انتشر هذا النصر في كل بقاع العالم الاسلامي.

وبعد هذا الانتصار أعلم جميع السفارات العالم الإسلامي بهذا النصر وأنه أصبح القائد الجديد للمغرب بما هياه الله له من نصر ومنها من بعث إلى الجزائر بهدايا إلى الامير اسماعيل<sup>4</sup>.

إن فداء الأسرى درّ أموال طائلة على بيت مال السعديين فقد استفاد منها ووظفت في تنمية العديد من الصناعات، وكذا المنشأة العمرانية.

- أكسب الشعب المغربي ثقة بنفسه، فعمّ الرخاء والاستقرار وساد الأمن والأمان وكثرت الفنون والعلوم والعلماء.

- اكتسب المغرب بذلك مكانة عالمية دولية والتي تمثلت في مختلف السفارات والبعثات التي عمت مراكش.

- انتهاء والقضاء النهائي على الغزو البرتغالي.

1- عبد الهادي التازي، معركة وادي المخازن الصغرى، ع 33، ص 126.

2- المجهول، المرجع السابق، ص 64.

3- هو أحمد بن محمد بن أبي العافية المعروف بابن القاضي، كتب عدة تراجم عن شخصية أحمد المنصور، حيث يعتبر من المقربين لديه وقد إفتاده المنصور عندما تعرض للأسر من طرف القراصنة. ينظر: أحمد بن محمد القري، المرجع السابق، ص 239.

4- هو الأمير إسماعيل بن عبد الملك السعدي، أمه تركية الأصل، تركه أبوه عند أترك الجزائر عندما دخل المغرب لقتال ابن أخيه المتوكل استغله الأتراك ورأوا أنه أحق بالملك من بان عمه المنصور. ينظر، عمار بن خروف، المرجع السابق، ص ص 229-234.

- التفكير في فكرة الغزو الفكري السلمي، بعد اخفاء الغزو الصليبي العسكري في المشرق العربي وفي مغربه<sup>1</sup>.

أما إذا نظرنا إلى نتائجها من حيث المستوى المتوسطي، فإن نتائجها كانت أكبر وأضخم، وهذا ما يتجسد على الخصوص، عند احتلال إسبانيا للبرتغال وهذا بعد موت الملك دون سيستيان دون أن يترك وريثا إضافة إلى عوامل أخرى والمتمثلة في اشتغال العثمانيين بالجهة الإيرانية والإسبان بمصاعبهم في أمريكا اللاتينية، كما أنها عملت على جعل كل من القوتين العثمانيين والإسبان في الدخول في مفاوضات لأجل انهاء الصراع، وهي التي أفضت إلى توقيع هدنة (988هـ - 1580م)<sup>2</sup>، وسمي هذا اليوم بيوم العيد يوم النصر حيث قيل (ملك مولاي أحمد سمّت جلالته، أوقع أحكامها عظيمة بكل القوات الذين كانوا مع مولاي عبد الملك. هكذا يهلك كل أعداء الرب وأحباؤه الشمس المشرقة بعظمته<sup>3</sup>.

كما أن هذه المعركة كانت بمثابة الحد الفاصل على حد تعبير (هنري طبراس) بين المسيحية والاسلام كونها حطمت أحلام ومطامع ملك البرتغال سيستيان<sup>4</sup>.

1- شوقي أبو خليل، المرجع السابق، ص 76.

2- تاريخ المغرب تحسين وتركيب، ص 382.

3- أخبار عائلة ابن دنان، الغرناطية الفاسية، كتاب التواريخ أو تاريخ فاس، تر: عبد العزيز شهير، تطوان: ط2، ص 21.

4- الحسن السائح، الحضارة الإسلامية في المغرب، الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط2، 1986، ص 324.

إستنتاج:

نستنتج أن العلاقات المغربية البرتغالية كانت تتميز بطابعين سلميين تمثل في المعاهدات والإتفاقيات المبرمة سواء بين الوطاسيين أو البرتغاليين، أو بين السعديين والبرتغاليين.

أما علاقات التوتر التي كانت بين الطرفين المغاربة سواء الوطاسيين أو السعديين والبرتغاليين، فإنها اختلفت من فترة إلى أخرى.

بالرغم من طابع تلك العلاقات التي كانت بين الطرفين (المغاربة والبرتغاليين) إلى أنهما نشبت بينهما حرب كبيرة كانت الغلبة فيها للمغاربة، حيث سميت هذه المعركة بمعركة وادي المخازن التي من نتائجها ما يلي:

- وضع حدّ نهائي للأطماع الإستعمارية البرتغالية بصفة خاصة والدول الأوربية بصفة عامة، وهذا بوفاة ملكها سيستيان، وإلحاق خسائر كبيرة بهذا المحتل.
- وفي المقابل إزدياد وقوة الدولة السعدية.



# خاتمة

بعد دراستنا للموضوع توصلنا إلى حوصلة حوله والتي كانت عبارة عن إستنتاجات وملاحظات والتي من أهمها:

نلاحظ أن المغرب الأقصى في بداية القرن السادس عشر كان يشهد أوضاعا متدهورة في جميع المجالات السياسية، الإقتصادية والإجتماعية وحتى الثقافية وخاصة في العهد الوطاسي، الذي كان يشهد وضعاً سياسياً متدهوراً ذلك بسبب إنتشار الفتن، بالإضافة إلى النزاعات والثورات المتكررة بين الأبناء والأبناء من أجل الوصول إلى الهدف المنشود وهو تولي والجلوس على كرسي العرش، وهذا كان له تأثيراً بالغاً على ضعف هذه الدولة وتلاشي قوتها وسقوطها كما ساهمت عوامل أخرى في ضعف هذه الدولة ونهايتها، نذكر منها موجات الغزو المتكررة على معظم المدن المغربية وخاصة الغزو البرتغالي، الذي سيطر على جل الثغور المغربية المهمة وكان ذلك بشكل كبير وواسع في العهد الوطاسي.

لم يكن لهذا الغزو أثار سلبية من الناحية السياسية بل كانت له تأثيرات أخرى شملت المجال الإقتصادي، الذي كان يعاني من نقص رؤوس الأموال وكذا قلة الإنتاج، حيث لم يكن بإمكان الفلاح زراعة أرضه في ظل هذه الظروف الصعبة، والتي كان يسودها الاستقرار والفوضى والإضطرابات كل هذه الأسباب أدّت إلى زيادة التدهور وسوء الحالة الداخلية للبلاد.

كما أن الحالة الإجتماعية لبلاد المغرب خلال هذا العهد كانت تعيش حالة جد مزرية حيث إنتشرت العديد من الأمراض والمجاعات التي كانت تتفاقم مع مرور الزمن، ضف إلى ذلك الجفاف والقحط الذي أصاب المغرب الأقصى في تلك الفترة، ونتيجة لهذه الظروف كان الناس مجبرين على بيع أبنائهم من أجل الحصول على لقمت يأكلونها، بالإضافة إلى الجانب الثقافي الذي كان يعاني من مشاكل صعبة خلال العهد الوطاسي، في جميع المدن باستثناء مدينتي (فاس وتطوان) وهذا راجع لموجود جامع القرويين بالنسبة لمدينة فاس أمّا عن مدينة تطوان فالسبب يعود إلى الهجرات الأندلسية التي توافدت عليها.

وعموما نقول أن أوضاع المغرب الأقصى خلال العهد الوطاسي كانت متدهورة، لكن بمجيئ دولة الأشراف السعديين إلى بلاد المغرب أصبحت البلاد تشهد تحسنا ملحوظا في جميع مجالات الحياة، فمثلا على المستوى السياسي زادت قوة وشجاعة المغرب وذلك بفضل دعوة السعديين الناس إلى الجهاد وهذا من أجل مواجهة العدو، وإسترجاع الثغور المحتلة، حيث إستطاعت هذه الدولة ان تكسب تجمع وجمهور كبير إلى صفها بفضل نسبها الشريف الذي يستمد إلى سلالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وبالفعل فقد تمكن هؤلاء من تحرير بعض الثغور التي أحتلت، كما شهد هذا التغير الجانب الإجتماعي بعدما كان يعاني من الأمراض الفتاكة والمجاعات، أصبحت الخزينة ممتلئة وخاصة في عهد أحمد المنصور الذهبي فعم الرخاء والإزدهار، ضف إلى ذلك الجانب الإقتصادي الذي شهد هو الآخر تغيرا إيجابيا، حيث كثرة منتوجات المغرب كالسكر والتمر، وكثرت المصانع حيث إنتشرت صناعة الجلود وصناعة الأواني، كما ترتب عن ظهور دولة الأشراف السعديين تطورا كبيرا في الجانب الثقافي، وإعادة بناء وإحياء الحركة الفكرية، كما إهتم بهذا الجانب السلاطين كذلك، وهنا نقول أن المغرب قد عرف نهضة علمية خلال العهد السعدي.

لقد كان وراء سقوط الحكم الوطاسي مجموعة من الأسباب التي منها: الإستقلال الذاتي لبعض المدن المغربية، قوة نفوذ الصلحاء وإفتقار الوطاسيين للوسائل العسكرية الحديثة وعدم إمتلاك جيش منظم، المحتل الأجنبي وخطورته على تلك الدولة، وكذا الفتن والصراعات التي كانت منتشرة بين أبناء الوطن لكن السبب الأول والأخير يعود إلى الغزو البرتغالي والصراعات بين الأبناء.

لقد ترتب عن سقوط كيان الدولة الوطاسية نتائج منها ضعف الإمبراطورية المغربية وتدهورها، في مقابل ذلك إزدهار وتطور الإمبراطورية البرتغالية، إضافة إلى حدوث مجموعة من التغيرات في بلاد المغرب وهذا مع ظهور دولة قويّة سميت بالدولة (الدرعية) أو (الزيدانية) التي كان لها الفضل الكبير في إسترجاع مكانة المغرب.

أمّا فيما يخص العلاقات البرتغالية المغربية في العهدين الوطاسي والسعدي فإنها قد تميزت بالسير المزدوج أي بين السلم والحرب خاصة في عهد الوطاسيين الذين عندما عجزوا عن توحيد بلادهم وتحسين أوضاعهم، إلتهجوا إلى عقد الإتفاقيات والمعاهدات مع المغاربة وكانت أولى هذه العمليات في عهد محمد الشيخ وهذا ما نلمسه في الرسائل التي كانت متداولة بين الطرفين والتي تثبت طبيعة العلاقة بين المغاربة وسكان المدن المحتلة التي كانت تعاني من السيطرة والظلم.

أمّا عن نظيره السعدي فقد تميزت العلاقات بالصراع والسلم الحذر، حيث إلتهج المغاربة بعد إحتلالهم تقريبا لجل الثغور والسواحل إلى القيام بغارات تأديبية لا غير، لكن ما ميز هذه العلاقات السعدية البرتغالية هو "شخصية أحمد المنصور الذهبي" قائد معركة وادي المخازن والمخطط لها بحكمة عبد الملك المعتصم بالله وهذه المعركة هي التي حقق فيها الجيش المغربي أكبر وأعظم إنتصار على العدو البرتغالي، ومنه نقول أن معركة وادي المخازن تعتبر كضربة قاضية للجيش البرتغالي والقضاء على الوجود له بصفة نهائية بل إنهاء وجود القوى الأوربية في البلاد المغربية.

ومنه يمكن القول أن معركة وادي المخازن تعتبر كقوة فاعلة للجيش المغربي والتي غيّرت في مسار ومجرى هذه العلاقات.

# الملاحق



الملحق الأول

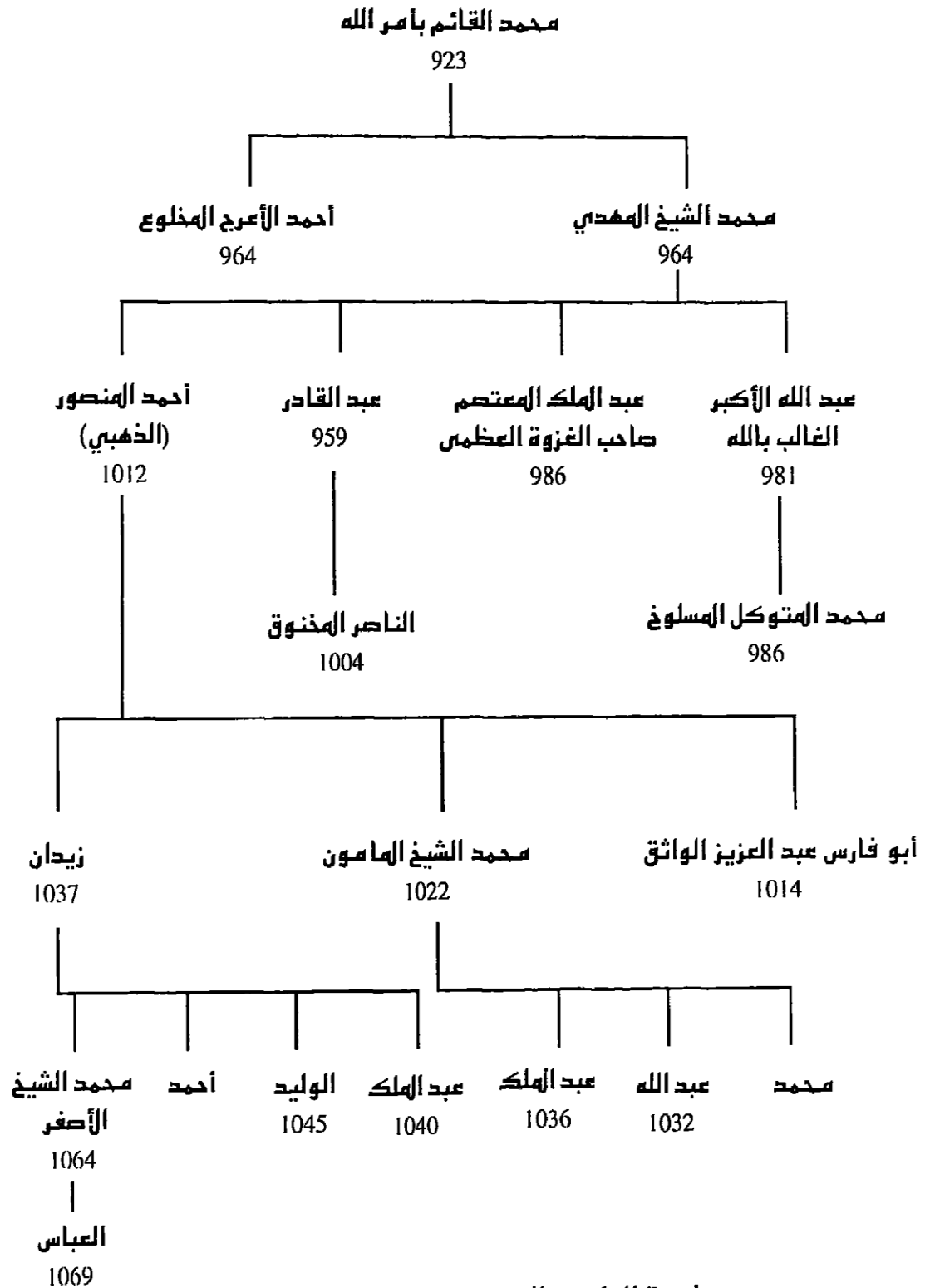
صورة للدون سيبيستيان ملك البرتغال "قتيل معركة وادي المخازن"<sup>1</sup>.



<sup>1</sup> - جلول بن قومار، المرجع السابق، 150.

الملحق الثاني

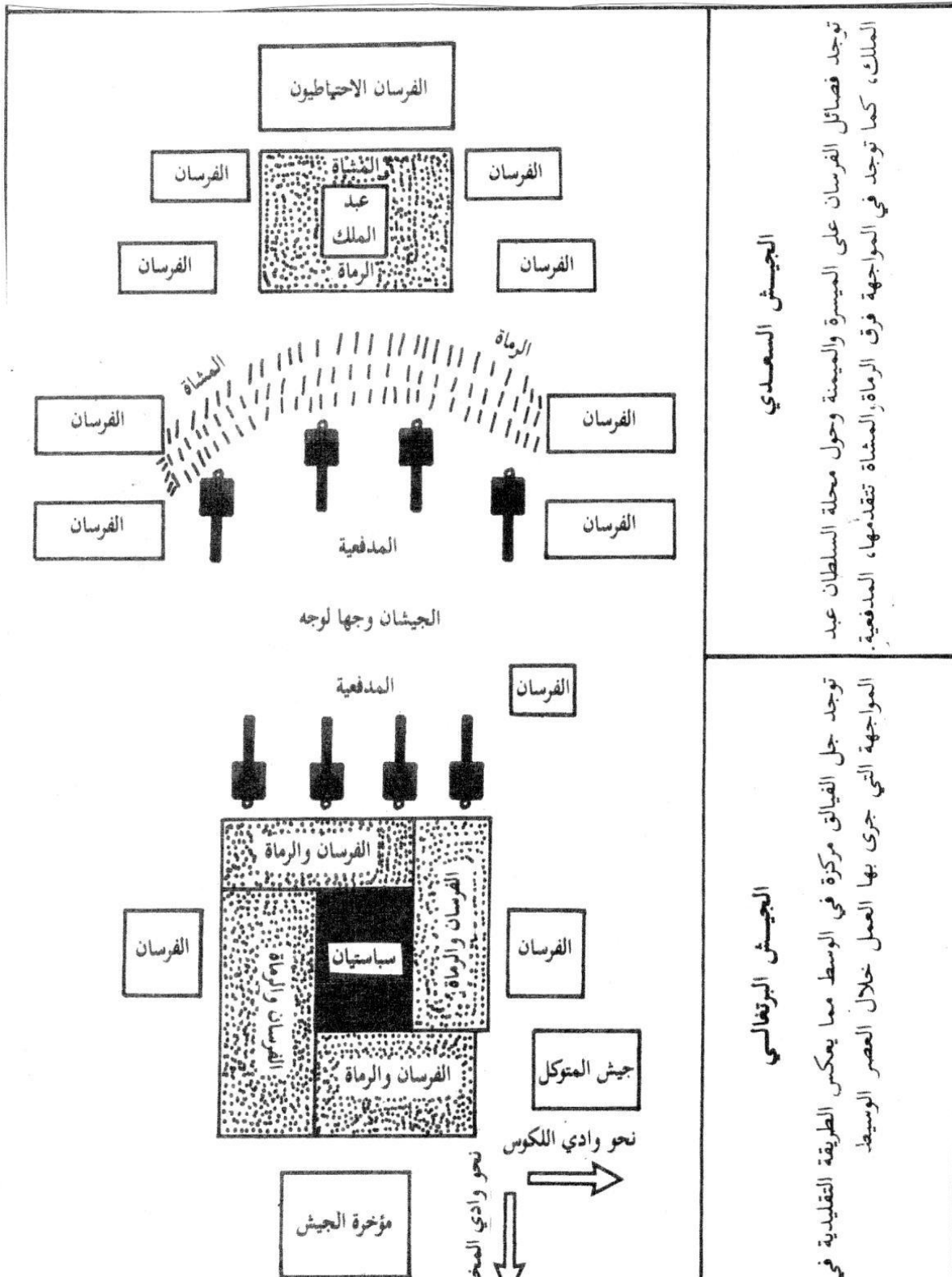
شجرة الملوك السعديين مع سنوات وفياتهم<sup>1</sup>.



<sup>1</sup> - محمد حجي، موسوعة أعم المغرب، ج3، دار الغرب الإسلامي، ص 1134.

الملحق الثالث

رسم بياني لمواقع القوات المتحاربة يوم معركة وادي المخازن كما جاء في كتابات لويس نبيتو<sup>1</sup>.



<sup>1</sup> - جلول بن قومار، المرجع السابق، 147.



# البيبلوغرافيا

القرآن الكريم.

### قائمة المصادر:

1. حجي (محمد) ، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعدين، ج2، الرباط: منشورات دار الغرب للتأليف والترجمة والنشر.
2. كربينال (مارمول) ، إفريقيا، تر: عن الفرنسية محمد حجي، وآخرون، ج1، الرباط: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، 1984.
3. المسعودي (أبي الحسن علي بن الحسين بن علي)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، مر: كمال حسن مرعي، ج1، بيروت: المكتبة العصرية، ط1، 2005.

### قائمة المراجع:

4. (الزياني) أبو القاسم ، الترجمان الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، الرباط: دار المعارف للنشر والتوزيع، 1991.
5. ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن) ، الكامل في التاريخ، ج3، بيروت: دار المصادر للطباعة والنشر، 1965.
6. ابن الخطيب السلماني (لسان الدين) ، تح: محمد كمال شيبانة، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 2002.
7. ابن القاضي (أحمد) ، لقط الفوائد من لفاظة حقق الفوائد، تح: محمد حجي، ج2، بيروت- لبنان: دار الغرب الاسلامي، ط1، 1996.
8. ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، حقيق عبد المنعم عامر، ج1، القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة.
9. أبو خليل (شوقي) ، معركة وادي المخازن معركة الملوك الثلاثة- القصر الكبير، بيروت- لبنان: دار الفكر المعاصر، ط1، 1988.

10. أبو رحاب (محمد السيد محمد)، الضمائر الدينية والجنائزية بالمغرب في عصر الأشراف السعديين،  
درا: آثارية ومعمارية، مصر: دار القاهرة، ط1، 2008.
11. الأفراحي (محمد الصغير) ، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، باريس : دار بيرن، 1888.
12. الأنصاري السبتي (محمد بن القاسم) ، اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار تح: عبد  
الوهاب بن منصور، الرباط: ط2، 1983.
13. برادة (ثريا) ، الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة،  
1970.
14. بروقنصال (ليقي) ، مؤرخوا الشرفاء، الرباط: دار الغرب للتأليف وترجمة والنشر.
15. بن العربي (الصادق) ، كتاب المغرب دار الغرب الاسلامي: الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر،  
ط3، 1984.
16. بن عمران بن عامر (عبد الرحمان بن عبد الله) ، تاريخ السودان، باريس، 1981.
17. بوشرب (أحمد)، وثائق ودراسات عن الغزو البرتغالي ونتائجه، الرباط: الدار البيضاء، ط1،  
1997.
18. التادلي (أبي يعقوب يوسف بن يحيى) عرف بإبن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي  
العباس السبتي، تح: أحمد التوفيق، الرباط: منشورات كلية الآداب، ط2، 1997.
19. التازي (عبد الهادي) ، الوسيط في التاريخ الدولي للمغرب، ج2، الرباط: دار المعرفة للنشر  
والتوزيع، ط1، 2001.
20. الترغي (عبد الله المرباط) ، فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة  
(منهجيتها- تطويرها- قيمتها العلمية)، تطوان: ط1، 1999م.
21. الحمل (شوقي عطاالله) ، المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية،  
ط 1، 1977.
22. الجيلالي (عبد الرحمان بن محمد) ، تاريخ الجزائر العام، ج3، الجزائر: منشورات دار مكتبة الحياة،  
ط2، 1950.

23. حجي (محمد) ، الزاوية الدلائية ودورها الديني والعلمي والسياسي، الرباط: ط2، 1988.
24. حجي (محمد) ، جولات تاريخية، ج1، بيروت: دار الغرب الاسلامي، ط1، 1995.
25. حركات (إبراهيم) ، المغرب عبر التاريخ، ج2، الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، ط1، 2000 .
26. الحسيني الشفشاوني (محمد بن عسكر) ، دوحة الناشر، لمحسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر، تح: محمد حجي، الرباط: مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، ط2، 1977.
27. الحميري (محمد ابن عبد المنعم) ، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، بيروت: مكتبة لبنان، ساحة رياض الصلح، ط2، 1984.
28. خير فارس (محمد) ، تاريخ المغرب الحديث، ج1، دمشق : مطبعة المحبة، 2003.
29. دوفوكو (شارل) ، التعرف على المغرب 1883-1884، ج1 المختار بلعربي، الدار البيضاء : دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط 1، 1999.
30. الرباطي (محمد الضعيف) ، تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعدية)، تع وتحر: أحمد العماري، دار المآثورات، 1986.
31. زروق (محمد)، دراسات في تاريخ المغرب، الدار البيضاء : إفريقيا الشرق ، 1990.
32. الزياني (أبو القاسم)، البستان الطريف في دولة أولاد مولاي الشريف، درا وتح: رشيد الزاوية، المملكة المغربية: إقليم الراشدية
33. زيدان (عبد الرحمان) ، الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة، الرباط.
34. سامح أتر (عزيز) ، الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا، تر: محمود علي عامر، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط1، 1989.
35. السائح (الحسن) ، الحضارة الاسلامية في المغرب، الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط2، 1986.
36. السيد (محمود) ، تاريخ دول المغرب العربي الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، 2006.

37. شحاته ريه (عطا علي محمد) ، اليهود في بلاد المغرب الأقصى في عهد المرينيين والوطاسيين، سورية- دمشق: دار الشفيق للطباعة للنشر والتوزيع، ط1، 1996م.
38. شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله (الحموي الرومي البغداوي)، معجم البلدان، مج1، بيروت: دار صادر.
39. الصقلي (العربي) ، مذكرات من التراث المغربي، مراجعة وتصحيح عبد السلام حجي، ج3، 1985.
40. الصلابي (علي محمد محمد) ، صفحات مشرقة من التاريخ الاسلامي، ج2، الاسكندرية: دار الايمان للطباعة والنشر والتوزيع.
41. الصنهاجي (أبي بكر بن علي) المكنى بالبيدق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين، الرباط: دار المنصور للطباعة والوراقة، 1971.
42. طوريس (ديكودي) ، تاريخ الشرفاء، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، الدار البيضاء : الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر.
43. العروي (عبد الله) ، محمل تاريخ المغرب، بيروت: الدار البيضاء، ط5، 1996.
44. عنان (محمد عبد الله): دولة اسلام في الأندلس، ج3، القاهرة: مكتبة خانجي، ط1، 1997.
45. الغرناطية الفاسية (أخبار عائلة ابن دنان)، كتاب التواريخ أو تاريخ فاس، تر: عبد العزيز شهبر، تطوان: ط2.
46. الغساني الأندلسي (محمد) ، رحلة الوزير في افتكار السير (1690م - 1691م)، لبنان: دار السويدي للنشر والتوزيع، ط1، 2002.
47. غلاب (عبد الكريم)، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ج2، بيروت: دار الغرب الاسلامي، ط1، 2005.
48. فالخ (حنظل)، العرب والبرتغال في التاريخ، أبو ظبي: منشورات المجتمع الثقافي، ط1، 1997.

49. فريدريك (محمد) ، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح: إحسان حقي، بيروت: دار النفائس، ط1، 1981.
50. الفشتالي (أبي فارس عبد العزيز) ، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تح: عبد الكريم كريم، الرباط: مطبوعات وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية والثقافية.
51. كريم (عبد الكريم) ، المغرب في عهد الدولة السعدية، الرباط: منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، ط3، 2006.
52. كنون (عبد الله) ، الينبوع المغربي في الأدب العربي، ج1، ط2.
53. مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، تقديم وتح: عبد الرحيم بن حادة، مراكش: دار تنميل للطباعة والنشر، ط1، 1994.
54. المشرفي (محمد بن محمد بن مصطفى)، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعدّ بعض مفاخرها غير المتناهية، دراسة وتح: إدريس بوهليلة، ج2، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط1، 2005.
55. معريش (محمد العربي)، المغرب الأقصى في عهد السلطان الحسن الأول، بيروت: دار الغرب الاسلامي، ط1، 1989.
56. المقري (أحمد بن محمد)، روضة الأس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيتهم من أعلام الحضيرتين مراكش وفاس، الرباط: المطبعة الملكية، ط2، 1983.
57. المكناسي (أبي العباس أحمد بن محمد) الشهير بابن القاضي، ذيل وفيات الأعيان المسمى دورة الحجال في أسماء الرجال، تح: محمد الأحدي أبو النون، ج3، القاهرة: دار التراث.
58. المكناسي (أبي عبد الله محمد بن أحمد بن غازي العثماني) ، الروض المتون في أخبار مكناسة الزيتون، الرباط: 1952.
59. ملين (محمد نبيل) ، السلطان الشريف الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب، تر:، عبد الحق الزموري وعادل بن عبد الله.

60. المنوني (محمد) ، قبس من عطاء المخطوط المغربي، مج 1، بيروت: دار الغرب الاسلامي، ط1، 1999.

61. مؤنس (حسين) ، تاريخ المغرب وحضارات من قبيل الفتح الإسلامي إلى الغزو الفرنسي، ج 2، بيروت - لبنان : العصر الحديث للنشر والتوزيع، ط1، 1992.

62. مويط رحلة الأسير ، تر: محمد حجي ومحمد الأخضر، مركز الدراسات والبحوث العلوية الريصاني: دار المناهل للطباعة والنشر، 1990.

63. الناصري (أبو العباس أحمد بن خالد) ، الاستقصاء الأخبار دول المغرب الأقصى الدولة المرينية، تح: جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء: دار الكتاب، 1997.

64. النحايلة (ليلي) ، يهود أسفي خلال القرن السادس عشر ميلادي، الرباط: منشورات جمعية البحث والتوثيق والنشر.

65. نواب (عواطف بنت محمد يوسف) ، كتب الرحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريين دراسة تحليلية مقارنة، الرياض: دار الملك عبد العزيز، 2008.

66. الوزان الفاسي (حسن بن محمد)، المعروف بليون الإفريقي، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي، محمد الأخضر، لبنان : دار الغرب الاسلامي، ج1، ط2، 1983.

67. يحي (جلال) ، المغرب الكبير العصور الحديثة وهجوم الاستعمار، ج3، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1981.

## الموسوعات:

1. حجي (محمد) ، موسوعة أعلام المغرب، ج3، دار الغرب الإسلامي.
2. مقلد الغنيمي (عبد الفتاح) ، موسوعة المغرب العربي، المجلد 3، ج6، القاهرة: مكتبة مدبولي، ط1، 1994.

الرسائل الجامعية:

3. أبو رميلة (هشام) ، تلمسان في العهد الزياني (633-962هـ/1235-1555م)، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين: 2002.
4. بكاي (هوارية) ، العلاقات السياسية والروابط الثقافية بين المغربين الأوسط والأقصى (633هـ-962هـ / 1233م-1554م)، رسالة الدكتوراه، جامعة دمشق، 2013-2014.
5. بن خروف (عمار)، معركة وادي المخازن وأثرها في العلاقات المغربية مع دول غرب أوروبا (البرتغال- فرنسا- إنجلترا) (986هـ- 1578م / 1012هـ- 1603م)، جامعة غرداية.
6. بن قומר (جلول) ، معركة وادي المخازن وأثرها في العلاقات المغربية مع دول غرب أوروبا (البرتغال- إسبانيا- فرنسا) (986هـ- 1012هـ/ 1578م- 1603م)، المركز الجامعي بغرداية، 2010-2011.
7. قلفاط (عبد الباسط) ، معركة وادي المخازن وتأثيرها على أوضاع المغرب الأقصى (986هـ- 1578م / 1012هـ- 1603م)، جامعة الجيلاي بوتعامة- خميس مليانة.

المجلات:

8. التازي (عبد الهادي) ، معركة وادي المخازن الصغرى، مجلة المناهل، وزارة الشؤون الثقافية، المغرب: الرباط، ع 33، 1985.
9. القباح (عبد الرحمان)، معركة واد المخازن (986هـ- 1578م)، مجلة الأحياء، تصدرها رابطة علماء المغرب، المغرب، ع1، 1981.



# الفهرس

|                                                                                 |                                                  |
|---------------------------------------------------------------------------------|--------------------------------------------------|
| .....                                                                           | الشكر والتقدير                                   |
| .....                                                                           | الإهداء                                          |
| .....                                                                           | قائمة المختصرات                                  |
| أ                                                                               | مقدمة                                            |
| <b>الفصل الأول: أوضاع المغرب الأقصى بداية القرن السادس عشر</b>                  |                                                  |
| 12                                                                              | تقديم                                            |
| 13                                                                              | المبحث الأول: الوضع السياسي                      |
| 20                                                                              | المبحث الثاني: الوضع الاقتصادي                   |
| 26                                                                              | المبحث الثالث: الوضع الاجتماعي والثقافي          |
| <b>الفصل الثاني: سقوط الدولة الوطاسية وبداية الحكم السعدي بالمغرب الأقصى</b>    |                                                  |
| 41                                                                              | تقديم                                            |
| 42                                                                              | المبحث الأول: أسباب سقوط الحكم الوطاسي ونتائجه   |
| 42                                                                              | أ. الأسباب                                       |
| 51                                                                              | ب. النتائج                                       |
| 54                                                                              | المبحث الثاني: بداية الحكم السعدي بالمغرب الأقصى |
| <b>الفصل الثالث: العلاقات بين المغرب الأقصى والبرتغال خلال القرن السادس عشر</b> |                                                  |
| 67                                                                              | تقديم                                            |
| 68                                                                              | المبحث الأول: العلاقات الوطاسية البرتغالية       |
| 78                                                                              | المبحث الثاني: العلاقات السعدية البرتغالية       |
| 86                                                                              | المبحث الثالث: معركة وادي المخازن                |
| 100                                                                             | خاتمة                                            |
| 103                                                                             | الملاحق                                          |
| 108                                                                             | البيليوغرافيا                                    |